الدكتور
شفيق عبد الرازق أبو سعدة

شعر الخصاء في العصر المملوكي

الطبعة الأولى
١٩٩١ م

دار الطباعة المحمدية
٣ درب الأتراك بالأزهر - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

« لله الأمر من قبل ومن بعد »

مقدمة البحث

لقد شاب أدب العصر المملوكى كثير من الغموض ، وأبهمت صورته أحكام نقدية غير متأنية ، فما من عصر أدبى أصابه من الظلم والإهمال ما أصاب هذا العصر وناله ، بالرغم من أنه يعد بمثابة الجسر بين الأدبين : القديم والحديث ، فقد حافظ الأدب فيه على رونقه ومائيته ، وتماسك ، وبقيت فيه أثارة من الحسن وبقية من البيان . . وما قيمة العصر المملوكى بالتى تنكر فى تراثنا العلمى والأدبى ، فلئن كان بعض أدبه يستحق ما وصف به من ضعف ، فليس من الإنصاف أن ينسحب هذا الحكم على بعضه الآخر . وليس من العدل إغفال غياب العنصر العربى الحاكم . .

إن موكب الشعر لم يتوقف فى هذه الحقبة ولم تونق عليه المنية بالرغم مما منى به من انحسار المد ، ونضوب المورد ، وقلة الباعث ، وعدم تفرغ الشعراء له ، ليظل الشعر متصل الحلقات على امتداد التاريخ ، فقد أغطشت سماء الأدب العربى فى العراق بعد أن اجتاحها المغول ، فعميت البصائر ، وضلت القرائح ، ومشى الناس فى دياجير الجهل حيارى ، لا يرون مظاهر الحياة حتى يضيئهم شارق فى سماء مصر ، أو بارق فى جو الشام ، وذلك لحفظهما لغة الضاد من الإصابة بالعقم ، ورفعهما سقوط الأدب ، وجمعهما شمل العلم ، ولولاهما لانفصمت عرى الأدب وتقطعت به الأسباب .

وترانى حين اخترت « شعر الخصاصة فى العصر المملوكى » ميدانا لهذه

الدراسة إنما أردت الوقوف على صورته الصحيحة ، محاولا قدر الإمكان التعرف عليه فى ضوء الملابسات التى أحاطت به ، إذ الإبداع الشعرى عمل تبعثه فى وجدان الشاعر بواعث كثيرة ، من بينها ما يحيط به من ظروف مجتمعه وأحوال الحياة ، فالشعر — وسائر الفنون — عمل اجتماعى تمتزج فيه المشاعر الذاتية بمشاعر الجماعة . ولا يعنى ذلك طمس ذاتية الشاعر ، لأنه لا يمكن إغفال دوافعه ونوازعه ..

وأردت كذلك إلقاء بعض الأضواء على درب من دروب أدب هذه الحقبة المديدة الهامة التى يكتنفها الغموض ، والتى لاتزال تفتقر إلى المزيد من عناية الدارسين وجهد الباحثين ..

ولا أدعى لهذا البحث فضل السبق فى ميدانه ، فهناك دراسات أدبية لها صلة ما بموضوعه ، كدراسة الأستاذ عبد العليم القبانى . فى كتابه : « مع الشعراء أصحاب الحرف » الصادر عن سلسلة « مذاهب وشخصيات » فى عام ١٩٦٧ م ، ودراسة الأستاذ الشاعر طاهر أبو فاشا ، فى كتابه « الذين أدركتهم حرفة الأدب » الصادر عن دار الشروق فى عام ١٩٨١م

والمتأمل يدرك أن بين هاتين الدراستين ودراستى هذه عموما وخصوصا وجهيا .. فأولى الدراستين نهضت على الترجمة للشعراء المحترفين.

وألقت الضوء على نماذج من أشعارهم ، ولم تقف عند طائفة المحترفين فى عصر بعينه ، فقد بدأت بظافر الحداد المتوفى فى عام ٥٢٨ هـ ..

بينما يمثل الاحتراف عندى نتيجة من نتائج الخصاصة التى عنيت بالكشف عن أبعادها فى الشعر المملوكى .

والقسمت ثانيتهما بالف والنشر حول محار فى الشعراء ومغمورين بهم والمتكسبين بالشعر ، بدءا بالجاهليين وانتهاء بالمعاصرين ، وتنقب عن

أسباب المحارفة والإكداء، سعيا إلى كلمة سواء فى قضية العلاقة بين الأدب ومحارفة بعض الأدباء .

بينما يعنى بحثى بظاهرة الخصاصة فى أوساط الناس بعامة والشعراء بخاصة، بهدف إبراز تباين الصورة الاجتماعية والاقتصادية إبان الحكم المملوكى، وموقف الشعر من هذا التباين، والكشف عن أسباب خصاصة الشعراء ونتائجها الإيجابية والسلبية، ودراسة أغراض شعر الخصاصة، والتماس الباعث فى كل غرض بغية الوصول إلى صورته الصحيحة، فى ضوء ما يحدق به من ملابسات فى معتركه، والتنويه بما فيه من قيم فنية بارزة، تلتقى بنظائرها فى شعر العصر أم ينفرد بها شعر الخصاصة .

ولعل فى هذه الدراسة ما يكشف النقاب عن معميات هذا الفن الشعرى حين نقرنه بجذوره الاجتماعية، ونربطه بملابسات عصره .

فإن حالفنا التوفيق فذلك غايتنا، وإلا فعذرنا أننا اجتهدنا مخلصين .

والله يسدد الخطا وهو يهدى السبيل

د/ شفيق عبد الرازق أبو سعدة

الفصل الأول

الشعر فى مواجهة التباين الاجتماعى إبان الحكم المملوكى :

عاش الناس فى دولة المماليك يجترون آلامهم وآمالهم ، ويشكون ويكتمون ، فالمماليك الذى حالوا بين المغول وأرض مصر ، وردوهم على أعقابهم مدحورين ، وطردوا الصليبيين الطامعين عن بلاد الشرق ، بعد معارك كثيرة ضارية ، هؤلاء بدلوا وجه الحياة تبدلا ملحوظا ، فقد ضعف فى عصرهم التماسك الاجتماعى ، واستكان الناس تحت نير الظالمين وسياطهم ، وغارت الأخلاق الجماعية الفاضلة ، إذ كانت مجازر الظالمين ودسائسهم تعملان لإسكات كل قلب متوثب ، حتى غابت من نفوس الناس كل حمية ، وجف مداد الأقلام المناضلة : وقد دعا بعض الشعراء على الملك الصالح نجم الدين الأيوبى . الذى أكثر من شراء المماليك ، وأسكنهم فى قلعة الروضة ، وأمرهم فى ديار مصر :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من
ترك بدولته ، ياشر مجلوب !
قد آخذ الله أيوبا بفعلته
فالناس كلهم فى ضر أيوب[1]

ومنه قول البهاء زهير الذى أدرك شطرا من عمر الدولة المملوكية (*) والذى أحس بخيبة أمل فيها :

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطى . تحقيق : محمد أبى الفضل إبراهيم ج ٢ ص ٣٤ . والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٣١٩/٦ .

(*) (فقد توفى البهاء زهير فى سنة ٦٥٦هـ أى بعد قيام الدولة المملوكية بثمانية أعوام تقريبا)

ودولة كم قد سألنا ربنا التعويض عنها
وفرحنا حين زالت جاءنا أنحس منها

فالماليك وأعوانهم قد ترفعوا على أهل البلاد، واعتبروا أنفسهم الطبقة المستعلية، التى تتفيأ ظلال النعيم، بينما الكادحون يرزحون فى أغلال الفقر والهوان، وتثقل كواهلهم الضرائب، وتقيد خطاهم أعباء الحياة، ويقصم ظهورهم القهر واليأس، وهاهو ذا القاضى تقى الدين ابن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢هـ يقول:

فما لهم فى توقى ضرنا نظر
ولا لهم فى ترقى قدرنا هم
لهم مريحان من جهل وفضل غنى
وعندنا المتعبان . العلم والعدم

ويقول البقفى المصرى، المتوفى ٧٠١هـ معارضا ميمية ابن دقيق العيد:

هم الوحوش ونحن الإنس حكمتنا
تقودهم حيثما شئنا وهم نعم
وليس شىء سوى الإهمال يقطعنا
عنهم، لأنهم وجدانهم عدم
لنا المريحان من علم ومن عدم
وفيهم المتعبان : الجهل والحشم(١)

ويقول الفقيه أحمد بن عبد الحليم بن تيمية. المتوفى ٧٢٨هـ، على لسان الفقراء:

---

(١) الدرر الكامنة لابن حجر، تحقيق محمد سيد جاد الحق ١ / ٢٣٠

والله ما فقرنا اختيار وإنما فقرنا اضطرار[1]

والمماليك فى الوقت نفسه يقطعون الإقطاعات للأمراء أو الوزراء أو ذوى القربى، وهى إقطاعات لا تورث بل ترد إلى يد السلطان إذا مات صاحبها[2].

وتأخذنا الدهشة حين نقرأ ما سجله ابن إياس عن ثروة الأمير سيف الدين سلار وزير السلطان بيبرس الجاشنكير (ت ٧١٠هـ) فقد بلغت مئات الدنانير الذهبية، ومئات القناطير الفضية، وكما هائلا من المعادن الكريمة والملابس الرفيعة[3]، والعجب أن يحدث هذا السلب فى زمن اشتدت فيه المجاعات، وكثرت الأزمات.

إن حرص المماليك وأعوانهم على جمع الأموال دفعهم إلى أن يشتطوا على الكادحين، ويزيدوهم رهقا، وقد صور البوصيرى (ت ٦٩٥هـ) ذلك فى رائيته التى منها:

والمال يجنى كما يجنى الثمار بها
حتى كأن بنى الدنيا لها شجر

والعاملون على الأموال ما علموا
من أى ما جهة يأتى وما شعروا

وما أرى بيت مال المسلمين درى
من أين تأتى له الأكياس والبدر[4]

---

(١) المرجع السابق ١/١٦٠

(٢) انظر مطالعات فى الشعر المملوكى. د بكرى شيخ أمين ص ٤٨

(٣) بدائع الزهور، طبعة بولاق ١/١٥٥

(٤) الديوان: تحقيق: محمد سيد كيلانى ص ٩٣ وما بعدها

وابن دانيال الموصلى الحكيم (ت ٧١٠ هـ) يعطينا صورة حية للواقع الأليم الذى كان يتم به جمع الأموال ، فى لاميته التى منها :

صاح لولا إعناء قبض الغلال ما قبضنا فى هذه الأغلال ...
هو قبض لكنه قبض قلب وهو شغل لكنه شغل بال[1]

وسرت عدوى هذا العنت والجشع إلى كل من ولى أمرا من أمور الناس ، وفى أدب هذه الحقبة صور صارخة من جشع وسلب المستخدمين ، وها هو البوصيرى يعرى أساليبهم المرذولة ، ويفضح مخازيهم فى قصائده عدة ، ومنها نونيته التى يقول فيها :

تكلت طوائف المستخدمينا فلم أر فيهم رجلا أمينا
فخذ أخبارهم عنى شفاها وأنظرنى لأخبرك اليقينا
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم
مع التجريب من عمرى سنينا[2]

ولعجب العجاب من سريان عدوى هذا الداء الوخيم فى أوصال أولئك الذين تفترض فيهم النزاهة والعفة وطهارة اليد كالقضاة ورجال الحسبة .

يقول شهاب الدين الشرمساحى (ت ٧٣٦ هـ) فى هجاء القاضى بدر الدين ابن جماعة من قصيدة مطلعها :

متى يسمع السلطان شكوى المدارس
وأوقافها ما بين عاف ودارس ...

---

(١) المختار من شعر ابن دانيال . تحقيق : محمد نايف الدليمى صـ ١٩٥ وما بعدها .

(٢) الديوان ٢١٨ وما بعدها .

يموت عديم القوت بالجوع حسرة
ويشبع بالأوقاف أهل الطيالس
فما أحد إلا وحشو حسابه
من الغبن نار دونها نار فارس[1]

وتجرع المجتمع الغصص من تفشي الرشوة والبرطلة ، وها هو عمر بن الوردي (ت ٧٤٩ هـ) يصور هذه الظاهرة في قوله :

قيل لي تبذل الذهب تتولى قضاء حلب
قلت : هم يحرقوني وأنا أشتري الحطب

ومنه أخذ ابن عشائر قوله :

قيل برطل على القضا ترغم الحسد العدى
قلت : هم يذبحوني وأنا أشحذ المدى[2]

ويندد ابن قاضي العسكر (ت ٧٦٢ هـ) باستئساد البغاث ، واعتلاء الجهلة مناصب ليست لهم ، ورجحانهم بأموالهم مع نقصانهم على أهل العلم ، قائلا :

إذا العلم لم يعضده جاه وثروة فصاحبه في القهر يمسي ويصبح
وإن أسعد المقدور فالصعب هين
وذو الجهل مع نقصانه يترجح[3]

لقد وسد الأمر إلى غير أهله ، إذ أصبحت الرشوة عرفا سائدا ،

---

(١) الدرر الكامنة جـ ١ صـ ١٧٢ .
(٢) الدرر الكامنة جـ ٣ صـ ٢٧٤ .
(٣) المرجع السابق ٢/١٥٥ .

وغدا المال شفيعا لا يرد ، ومداوياً للجروح لا يجحد ، على حد قول أثير الدين أبي حيان الأندلسي :

أتى بشفيع ليس يمكن رده   دراهم بيض للجروح مراهم

تصير صعب الأمر أهون ما ترى
وتقضي لبانات الفتى وهو نائم(١)

وهذا كمال الدين الإدفوي (ت ٧٤٨ ه) يتهكم في مرارة بالزين الدمشقي الذي ولي تدريس الحديث ، وليس له شفيع من علم أو نصيب من حديث ، وإنما شفيعه درهمه :

بالجاه تبلغ ما تريد فإن ترد   رتب المعاني فليكن لك جاه

أو ما ترى الزين الدمشقي قد ولي
درس الحديث وليس يدري ما هو(٢)

ويتمى ابن الوردي هذه الحال التي تردى في حمأتها المجتمع ، وانهيار القيم الأخلاقية في قوله :

أهل الفضائل والآداب قد كسدوا
والجاهلون فقد قامت لهم سوق

والناس أعداء من سارت فضائله
فإن تعمق قالوا عنه زنديق(٣)

لقد انقلبت الموازين ، واختلت المعايير ، وزاد البعد هوة بين ما ينبغي أن يكون وبين ما هو كائن شيوع الغلاء ، واشتداد الأزمات ، وانتشار القحط ، وتوالي المجاعات ، وهذه صيحة باكية شاكية ، معبرة

---

(١) السابق جـ ٣ صـ ٧٢   (٢) السابق جـ ٣ صـ ٢٣٨
(٣) الديوان ، تحقيق : د . أحمد فوزي الهيب صـ ٢٧٨ .

عن دموع الناس ، وفاقة الأغنياء بله الفقراء ، أطلقها شمس الدين النواجى (ت ٨٥٩ هـ) .

لرب العلا نشكو أذى القحط والغلا
وما مسنا فيه من الضر والبلا
ونسأله فى البأس واليأس والرجا
رجا ، فقد متنا وعاجلنا البلى ...
ودارت رحاء الجدب فى كل بلدة
وما تركت للخصب فى مصر منزلا ...
ومذغاض مقياس المنى ضاق عيشنا
وأمحل ربع الأنس والصبر ما حلا
به الأغنيا يشكون فقرا وفاقة
فكيف بمن أمسى معيلا ومعولا
حنانا حنانا يا مغيث الورى فقد
يسنا ، وكل الخلق أصبح مبتلى[1]

ومن عجب أن يجهد الكادحون ، وأن يتضوروا جوعا ، وأن يعانقوا الهوان والحرمان ، والأقباط يستأثرون بالأرزاق دون الناس ، ويملكون زمام الاقتصاد ، ويجمعون الأموال من غير وجهتها ، ويستبدون فيحولون بين الناس وبين أن ينالوا من الأموال حطاما ، وها هو ذا شهاب الدين الأعرج السعدى (ت ٧٨٥ هـ) ينعى هذا

(١) كوكب الروضة للسيوطى . مخطوط بدار الكتب المصرية ص ١٣٥ ، نقلا عن : عصر سلاطين المماليك : د . محمود رزق سليم ح ٨ ص ٣٦٢ .

النحس الذى جرت فى مضماره خيـــول المماليك ، فيقول ساخرا متهكما :

وكيف يروم الرزق فى مصر عاقل
ومن دونه الأتراك بالسيف والترس؟!
وقد جمعته القبط من كل وجهة
لأنفسهم بالربع والثمن والخمس
فللترك والسلطان ثلث خراجها
وللقبط نصف والخلائق فى السدس[١]

تلك إذن قسمة ضيزى ، ويتهكم الدنيسرى شهاب الدين أحمد بن العطار (٧٩٤هـ) بـ هذا الأمر تهكما لاذعا ، فيقول:

قالوا : نرى الأقباط قد رزقوا
حظا ، وأضحـــوا كالسلاطين
وعـللوا الأمـــوال ، قلت لهم
رزق الكلاب على المجانين[٢]

وغدا الشعب لذلك مطحونا ، مهيض الجناح ، مقهور الإرادة ، لا يريش ولا يبرى ، لا يستطيع الإطاحة بقيوده وأغلاله التى يرسف فيها لرهبة الحاكم المملوكى ، وما يجمع فى يديه من أسباب القهر والعسف من جهة ، وللروح الدينية الفطرية عند الشعب المصرى من جهة أخرى . هذه الروح التى جعلته يستكين لهؤلاء الذين يدافعون عن الدين ، المهدد بالمغول من جانب ، والصليبيين من جانب آخر .

والمماليك بمكرهم ودهائهم وضعوا أيديهم على مفتاح شخصية

---

(١) الدرر الكامنة ٣٥٦/١
(٢) حسن المحاضرة ٥٧٢/١

المصريين ، فبهروهم بالدفاع عن حياض الإسلام ، وبناء المساجد والمدارس ، ليغمدوا سيف ثورتهم ، وكتب المصريون غيظهم فى نحورهم واستنزف المماليك دماءهم ، وتمتعوا بخيراتهم دونهم ، وعاش الكادحون حياة البؤس والشقاء والحرمان ، التى اضطلع بتصويرها أدب هذه الحقبة .

إن مثل هذا الاختلال لا يستبعد فى مجير المماليك ، الذين تمثل فيهم ازدواج الشخصية ، فقد ظهروا للناس فى مسوح الصالحين وأردية التقاة ودروع المدافعين ، بينما كانت حياتهم الخاصة تضج بأشنع المنكرات ، والتعسف فى أذى الخلق ، وإهراق الدماء .

الفصل الثاني

خصاصة الشعراء فى دولة المماليك

بين الأسباب والنتائج

فتح باب التكسب بالشعر على مصراعيه أمام الشعراء منذ العصر الجاهلى، وأضحى ظاهرة فى العصر الأموى وما تلاه من عصور، ولهذا احتل فن المديح مكانا بارزا بين فنون الشعر، فقد كان القوم عربا تترنح أعطافهم لتلك الديباجة العربية، تبهرهم المدائح، وتهزأريحيتهم، يتذوقون جماله، ويطربون لوقعه وجرسه، فيثيبون ويجزلون، فمنذ النابغة وزهير والشعراء يروحون ويجيئون بجر الحقائب، يخلعون على ممدوحيهم أطايب المدائح، ويخلع عليهم ممدوحوهم أطايب المنائح.

ثم خلف من بعدهم خلف عجم انحسر فى أيامهم هذا المد الأدبى، وتداعت مكانة الشعر والشعراء، فهم لا يتذوقون جمال الإبداع الشعرى، ومن هنا فقد الشعر العون والنصير إبان وثبة الأعاجم على مقاليد الأمور، فالمماليك فى مجموعهم لم يعيروا الشعر اهتماما، ولم يأبهوا بالشعراء الذين تداعى عليهم الفقر وسوء الحال والحرمان من كل جانب دحورا، وغشيهم المحل والجدب والوصب، فلله در شعراء الدولة المملوكية !!

لقد كسدت بضاعتهم، وبارت تجارتهم، وركدت ريح أدبهم، والفقر الذى ألهبت سياطه ظهور كثير من مشاهير شعراء العصر كامن فى سببين رئيسين، أفصح الشعر عنهما :

١ — ضن المماليك وبخلهم على الشعراء :

« فلم تكن لهم سياسة متبعة ولا أريحية واسعة فى إثابة الشعراء »[١] حتى تسرب اليأس من المماليك وعوامل تشجيعهم إلى نفوس الشعراء ، وها هو ذا سراج الدين الوراق (ت٦٩٥هـ) يقول (وفيه تورية رائعة):

لا تطمعن براحة من معشر سادوا بغير مآثر السادات
قطعت عن المعروف أيديهم وقد
سرقوا العلا فخلت من الراحات[٢]

ويأسى أبو الحسين الجزار (ت ٦٧٩ هـ) قائلا :

أمولاى ما من طباعى الخروج ولكن تعلمته من خمولى
أتيت لبابك أرجو الغنى فأخرجنى الضرب عند الدخول[٣]

ويجأر مصرحا بهوى المماليك وطباعهم فى رسالة إلى القاضى « ابن خلكان » :

قد أصبح المملوك لا يشتهى شيئا سوى لقياك والعافيه
لم يلف جزارا ولا شاعرا لا الحرفة الأولى ولا الثانيه

ويتحسر على أشعاره التى أضاعها على أبواب أولئكم المتحجرين ، قائلا :

أكلف نفسى كل يوم وليلة هموما على من لا أفوز بخيره»[٤]

وينعى السراج الوراق موقف المماليك من الشعراء قائلا :

وفضوا الشعر جهدهم ورموه بينهم بالهوان والازدراء

---

(١) عصر سلاطين المماليك ٧/٨
(٢) خزانة الأدب لابن حجة ص ٣٣
(٣) المرجع السابق ص ٧٣
(٤) مع الشعراء أصحاب الحرف لعبد العليم القبانى ص ٤٩

فلو أن الكتاب كان بأيد يهم محوا منه آية الشعراء

ويقول والمرارة تملأ حلقه، (وفيه تورية) :

أصون أديم وجهى عن أناس لقاء الموت عندهم الأديب

ورب الشعر عندهم بغيض ولو وافى به لهم حبيب »[1]

ويأسى ابن حجة الحموى (ت : ٨٣٧ هـ) لمفارقات العصر قائلا :

قد منعتم صرف الدنانير عنى ولكم فى الورى هبات كثيرة

وأنا شاعر وفى شرع نظمى
صرفها واجب لأجل الضرورة[2]

وفى كلام عمر بن الوردى (ت : ٧٤٩ هـ) ما يشفى الغليل :

سل الله ربك من فضله إذا عرضت حاجة مقلقه

ولا تسأل الترك فى حاجة فأعينهم أعـين ضيقه[3]

وهنا تستملح هذه الوقفة مع ابن حجر الذى يقول :

« ويزعم صلاح الدين الصفدى (ت : ٧٦٤ هـ) أن ابن الوردى قد أخذ هذا المعنى من قوله :

اترك هوى الأتراك إن شئت أن
لا تبتـلى فيهم بهم وضير

ولا ترج الجود من وصلهم ما ضاقت الأعين منهم لخير

ولم يأت بدليل على أن ابن الوردى هو المختلس، بل المتبادر إلى الذهن عكس ذلك »[4].

---

(١) خزانة الأدب لابن حجة ص ٢٤٦

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٧ (٣) الديوان ص ٢٧٧

(٤) الدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى جـ ٣ ص ٢٧٣ (بتصرف)

ولعل ابن حجر قد نظر فى إصدار هذا الحكم إلى السنة التى توفى فيها كل من الشاعرين ، فوفاة ابن الوردى فى سنة ٧٤٩ هـ ، ووفاة الصفدى فى سنة ٧٦٤ هـ.

إن الإغداق على الشعراء عامل جليل الخطر فى تقريبهم وتشجيعهم على الإجادة فى القول والتسجيل والتفصيل ، والعكس صحيح ، وإذا كان هذا السبب — الذى تحدثنا عنه — يرجع إلى الطبع النكز ، وما جلت عليه النفس من شح وعدم أريحية ، فإن هناك سببا آخر يرجع إلى الذوق والحاسة الأدبية ، وهو المتمثل فى :

٢ — عدم تذوقهم الشعر :

إن فهم المتلق وتذوقه لما يهدى إليه من طرائف الأدب يهز أريحيته، ويجعله يسخو ،فيروج الأدب، ويزد هى الشعر ؛ وربما كان فهم المتلقى وتذوقه للشعر الذى يلقى على سمعه يعدله ، بل يفوق عند الشعراء المبدعين الذهب النضار ، هذا شرف الدين البوصيرى (ت : ٦٩٥ هـ) يقول :

والشعر ميزانه أقومه وليس تنقام منه لى حد به

فإنى لا أرى المديح به للمال بل للوداد والصحبة

والشعر عندى أخو العدالة لا أحسب أقواله ولا كسبه .(١)

ومن ثم فالشعر إذا لم يجد من الحكام فهما ووعيا وإدراكا وتمييزا وكدت ريحه . مهما كيل له من مال ، فكيف به وقد عرى من هذين الدافعين معا ؟ !.

بالرغم من وجود قلة قليلة من سلاطين المماليك كانت تتمتع بقدر

---

(١) الديوان بتحقيق : محمد سيد كيلانى ص ١٠١

من الفهم والذوق الأدبى ، يثير إعجاب الكتاب والشعراء ، أمثال : المنصور قلاوون والناصر محمد بن قلاوون ، والمؤيد شيخ ، وقانصوه الغورى ..

فما أقل الكرام !! ومع هذا فإننا إذا قارناهم بأمثال : المهدى والرشيد والمأمور وسيف الدولة الحمدانى ، ما أضحى هؤلاء المماليك شيئا مذكورا ولتبين لنا ضآلة شأنهم فى هذه الخاصية ..

ولا غرابة ! فالقوم ليسوا عربا ، وقد تحجرت أحاسيسهم ، وما أدق قول أبى الطيب المتنبى :

وإنما الناس بالملوك وما   يفلح عرب ملوكها عجم [١]

وفى شعر هذه الحقبة صور مفصحة عن هذه الحقيقة ، تستبينها فى قول الوراق :

ورب الشعر عنـــدهم بغيض
ولو وافى به لهـــم حبيب [٢]

وقول شمس الدين محمد بن عفيف الدين التلمسانى المعروف بالشاب الظريف (ت : ٦٨٨ هـ) :

وتابعين إماما وهو من خشب
وقد يؤنث فى وصف وفى خبر [٣]

ويتهكم أبو الحسين الجزار قائلا :

وكم قابلت تركيا بمدح   فكاد لما أحاول منه يحنق

---

(١) شرح ديوان المتنبى للبرقوقى ١٧٩/٤
(٢) خزانة الأدب لابن حجة ص ٢٣٦
(٣) الديوان ص ٤٣

وتسقط حرمتى أبدا لديه
فلو أنى عطست لقال : يشمق !! [١]

ويقول ابن البقفى ، وكأن به يسرى عن نفسه ونفوس من هم على شاكلته ، :

هم الوحوش ونحن الإنس حكمتنا
تقودهم حيثما شئنا : وهم نعم [٢]

ومثله شهاب الدين بن العطار فى قوله :

وما رأيت أناسا لكن حميرا وعيسا [٣]

ويجردهم ابن الوردى من كل شىء إلا المال ، حيث يقول :

ما الأغنياء الأغبيا حجة يكفيك أن القوم جهال
رضيت ما يقسمه ربنا لنا علوم ولهم مال [٤]

وجمال الدين بن نباتة المصرى (ت : ٧٦٨ هـ) أمير شعراء زمانه ، يفر بشعره من مصر إلى الشام ، آملا أن يجد فيها مرتزقا ، وأن يظفر فيها شعره بمتنفس . يفصح عن ذلك قوله فى مدح المؤيد إسماعيل صاحب حماة :

من مخبر الملك المؤيد أننى لولاه ما سميت نفسى شاعرا

---

(١) مع الشعراء أصحاب الحرفة ص ٤٠
(٢) الدرر الكامنة ٧٨٤/١
(٣) الخزانة ٣٧٧
(٤) الغيث المسجم ١٤٧/١

وحلفت لم أمدح سواه لرغبة
لكننى جربت فيه الخاطر ! [1]

فلم يشعر بكونه شاعرا إلا فى رحاب المؤيد المتذوق ، وما أروع ماصور ابن نباتة معاناة الشعراء ، فى قوله للصاحب شرف الدين ناظر الممالك الحلبية :

أنت الذى أحيا القريض وطالما
أمسى رهـين عنا طريد فناء

فى معشر منعوا إجابة سائل — ولقد يجيب الصخر بالأصداء

أسفى على الشعراء أنهو على — حال تشير شماته الأعداء

خاضوا بحور الشعر إلا أنها — مما تريق وجوههم من ماء [2]

لقد فقد الشعر فى بلاط الحكام المتلقى الذواقة، كما فقد المتلقى المعطاء الجواد ، فالمماليك بسبب عجمتهم أقصوا الشعراء ، وزهدوا فى الشعر ، وضنت أيديهم على الشعراء وشحت ، وفترت نظرتهم للشعر وكلت ، وزهدوا — تبعا لذلك — فى الاختصاص بالشعراء ، فلم يكن لكل سلطان شاعر يختص به أو أكثر ، كما كان الحال من قبل ، مما ترتب عليه تقلص الإحساس بمكانة الشاعر وأهميته فى نظره ونظر الناس .

وانصرف بعضهم بسبب العجمة إلى الأدب الشعبى ، ومعاضدة الزجالين [3] .

من هنا تسرب اليأس من المماليك وعوامل تشجيعهم إلى نفوس الشعراء ،

(١) الديوان نشر محمد القلقيلى (الطبعة الأولى) ص ٢١١
(٢) المرجع السابق ص ١٤
(٣) انظر : عصر سلاطين المماليك ٥٠٨/٨ وما بعدها .

فاندسوا فى غمار الناس ، وراحوا يجاهدون الخصاصة بكل سلاح ممكن. إن بخل المماليك على الشعراء قد كبت أنفاسهم ، وعوق تيارهم ، وحال بينهم وبين ما يشتهون .

أثر ذلك فى الشعر والشعراء :

كان لضن المماليك وعدم تذوقهم الأثر المباشر فى وقوع كثير من الشعراء تحت وطأة الفقر المدقع .. وكيف لا ؟

ورب الشعـــر عندهم بغيض ولو وافى به لهم حبيب [١]

وهيهات هيهات !! أن يصيخ السادرون فى غيهم لصيحات الشعراء الموتورين وهم يصطرخون فيهم :

جودوا لنسجع بالمديـ ـح على علاكم سرمدا
فالطير أحسن ما يغـر د عند ما يقع الندى [٢]

لقد طحنت الشعراء خصاصتهم ، حتى أشرف ابن نباتة المصرى على الهلاك ، فجأر قليلا :

أنا فرع من النبات إذا ما هجرته السقاة خاف مماته [٣]

ونعى على أدبه ، وعلى موقف العجم المهيمنين على بلده منه ، فى قوله :

---

(١) البيت للوراق .. خزانة ابن حجة ص ٢٤٦ .
(٢) البيتان لنصير الدين الحمامى (ت : ٧١٢ هـ) انظـــر : حسن المحاضرة السيوطى ٥٦٦/١ .
(٣) الديوان ص ٧٢ .

لا عار فى أدبى إن لم ينــل رتبا
وإنما العار فى دهرى وفى بلدى

هذا كلامى ، وذا حظى ، فيا عجبا
منى لثروة لفـظ وافتقـار يد

وما أروع ما اعتذر به ابن نباتة عن الشعراء المقهورين ، وما أنبله فى قوله :

فليعـذر الآن مغـلوب بعـائلة
ليس السكوت بمجديهم ولا الحرك

تدور فى أحرف الألفاظ هامته
وما يدور على حرف لهم حنك

أموت حزنا إذا عاينت حالهم
وما فى الموت إلا هـذه الترك[1]

إن حمأة الفقر التى اصطلى فى لهبها شعراء العصر ، وهوان أمرهم ، وافتقارهم الذوق الأدبى فى جل سلاطين المماليك ، قد تمخض كل ذلك وغيره عن نتائج أبرزها :

١ — انحسار المد السياسى وتقلص معاناة المديح الرسمى .

٢ — الفرار بالشعر إلى متذوقيه .

٣ — هوان الشعر .　　　٤ — انصراف الشعراء إلى الحرف .

١ — انحسار المد السياسى وتقلص معاناة المديح الرسمى . .

لم يجد الشعراء فى الشعر مرتزقا ، وقد ضاقت بهم سبل العيش ،

---

(١) المرجع السابق ١٢٥ ، ٣٦٣ .

وتقطعت أسبابه ، فانصرفوا إلى التعبير عن نفوسهم ، والإفصاح عما يجدون ، وسكتت فى صدورهم بلابل الشعر عن التغريد بالمدائح الرسمية ، ولا بدع ! فالطير يكثر حيث ينتثر الحب ، والمديح بعامة يحفزه الطمع ، وقد صرح سلفاً بهذه المعانى نصير الدين الحمامى .

ويروى صلاح الدين الصفدى ، ما تحا أعماق التاريخ العربى قائلا :

لما جسستك بالمديح ولم أكن
أدرى بأنك خامل فى الناس
ناديت لما أن جسستك بالهجا
أكليب خذها من يدى جساس[1]

وتهكم السراج الوراق قائلا :

وقائل لى لما أن رأى قلقى   من انتظارى لآمال تعنينا
عواقب الصبر — فيما قال أكثرهم —
محمودة ، قلت : أخشى أن تخرينا[2]

إن يأس الشعراء من المماليك جعلهم يعافون إطراءهم ، ويندمون بالتالى على ما فرطوا فى حق الشعر ، وهذا ما يؤكده قول أبى الحسين الجزار :

أكف نفسى كل يوم وليلة   هموما على من لا أفوز بخيره[3]

ومن ثم ابتعد الشعر عن الساسة ، وانحدر عن مكانته السياسية ، وكأنه لم يجد سلاطين المماليك أهلا لخلع درره عليهم ، وتتويجهم بأكاليله وفرائده :

---

(١) خزانة ابن حجة ص ٢٥٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٤٦ .
(٣) مع الشعراء أصحاب الحرف ص ٤٩ .

وإلا « فأين قولهم فى ميدان السياسة ، وأين شعرهم فى مجالاتها ؟ وكانت الدولة طافحة بأحداثها ، والشعب مشغول بفتنتها ومفاخراتها ؟ »[1] .

وقد يعترض على هذا الاستنتاج بقصائد مدحية ، كقصيدة محيى الدين ابن عبد الظاهر — رئيس ديوان الإنشاء — فى مدح الظاهر بيبرس ، يوم أن تتبع فلول التتار المندحرين ، وخاض الفرات خلفهم فى عام ٦٧١هـ وشتت شملهم وأباد جموعهم ، والتى يقول فيها ابن عبد الظاهر :

تجمع جيش الشرك من كل فرقة
وظنوا بأنا لا نطيق لهم غلبا

وجاءوا إلى شطر الفرات وما دروا
بأن جياد الخيل تقطعها وثبا إلخ[2]

ورائية شهاب الدين محمود الحلبى (ت : ٧٢٥هـ) فى نفس المعركة ، ومنها :

حملتك أمواج الفرات ومن رأى
بحرا سواك تقله الأنهار

شكرت مساعيك المعاقل والورى
والترب والآساد والأطيار

فلأملأن الدهر فيك مدائحا
تبقى — بقيت — وتذهب الأعصار[3]

---

(١) عصر سلاطين المماليك ١٠/٨ .
(٢) فوات الوفيات لابن شاكر طبعة بولاق ١١١/١ .
(٣) المرجع السابق ١٠٩/١ .

وبائيته فى مدح الأشراف صلاح الدين خليل بمناسبة فتحه مدينة عكا فى عام ٦٩٠ هـ والتى منها .

الحمـــد لله زالت دولة الصلب
وعز بالترك دين المصطفى العربى ...
مابعد عكا وقد هدت قواعدها
فى البحر للشرك عند البر من أرب...
فلا برحت عزيز النصر مبتهجاً
بكل فتح مبين المنح مرتقب[١]

وهمزية جمال الدين الخشاب فى مدح السلطان قطز بانتصاره على أعداء الدين ، والتى منها :

ملك تزينت الممالك باسمه — وتجملت بمديحه الفصحاء
كم للفرنج وللتتار ببابه — رسل هناها العفو والإعفاء
وطريقه لبلادهم موطوءة — وطريقهم لبلاده عذراء[٢]

ولهذا الاعتراض وجاهته ، بيد أنه ينبغى إدراك أن الذين مدحوا كانوا بين : موظف رسمى فى الديوان ، وشاعر هزه انتصار المسلمين بقيادة المماليك على أعداء الإسلام ، من صليبيين وتتار ... ومثل هذا الشعر أشبه ما يكون بشعر الفتوح الإسلامية ، يعبر عن ابتهاج المسلمين بنصر الله والفتح ، ولا يقـــدح فيما توصلنا إليه التفاف الشعراء حول المجاهدين ، وسكبهم بين أيديهم فيض قرائحهم المنظومة .

ويسترعى الانتباه أن عدوى تقلص المديح السياسى لم تتعداه إلى

---

(١) المرجع السابق ١٩٦/١
(٢) الخطط المقريزى ٥٩/٤

المديح القائم على الود أو الإعجاب ، فقد ظل قائما على سوقه فى ميدان الصداقة والإعجاب بالأعلام ، والعلماء المبرزين ، فهذا ابن نباتة يمدح كمال الدين بن الزملكانى أحد علماء العصر بتائيته التى اتجه إليها كثير من شعراء العصر بالمعارضة ، والتى استهلها بالغزل قائلا :

قضى وما قضيت منكم لبانات
متيم عبثت فيه الصبابات

ما فاض من جفنه يوم الرحيل دم
إلا وفى قلبه منكم جراحات

أحبابنا كل عضو فى محبتكم
كليم وجد فهل للوصل ميقات؟!

ومنها :

جاورت بابك فاستصلحت لى زمنى
حتى صفا وانقضت تلك العداوات

وبت لا أشتكى حالا إذا شكيت
فى باب غيرك أحوال وحالات[1]

وهذا الشاب الظريف يمدح محي الدين بن عبد الظاهر بلاميته التى منها :

ومعشر لم تزل للحرب بيضهم
حمر الخدود وما من شأنها الخجل

ضاءت بحسنهم تلك الخيام كما
ضاءت بوجه ابن عبد الظاهر الدول

---

(١) الديوان ص ٧٠

فللعداة لديه كل ما حذروا
والعفاة عليه كل ما سألوا[1]

ومثل هذين النموذجين كثير فى الشعر المملوكى .

ولا يغيب عن أولى البصر أن أسباب خصاصة الشعراء التى أدت إلى تقلص السياسة فى الشعر ، وخفوت صوت المدائح الرسمية فى واديه ، قد أدت كذلك إلى :

٢ — فرار الشعراء بالشعر إلى متذوقيه :

من الشعراء من اندفع يائسا إلى هجر الوطن الذى اختلط بدمه ، وامتزج بروحه هروباً من سلاطين المماليك الذين امتهنوا الشعر، وازدروا الشعراء ، ومن الشعب الذى ظاهر الامتهان ، وآزر الازدراء . بانصرافه عن الشعر والشعراء ، وفراراً إلى ميدان لم يكن له به ألف من قبل ، أملا فى أن يجد فيه لشعره قنوات يجرى تياره فى مجاريها ، ورئات يتنفس بها، ومراحات يبدع فيها .

ولعل أصدق مثال هذه الحقيقة ابن نباتة المصرى ، فإنك إذا تصفحت ديوانه وقرأت تبيانه ، لا تعثر فيه على قصائد ذات قيمة تنبىء عن ملك عظيم من ملوك مصر ، أو أمير كريم من أمراء مصر — إلا لماما — ولقد كان ابن نباتة يعيش في زمن الناصر محمد بن قلاوون ، هذا الزمان الذى امتلأ بالحوادث وتخللته الاضطرابات والفتن ... ولم يسجل ابن نباتة فى شعره شيئاً من حوادث ذلك الزمان ، ولا أشار إلى شىء من تقلبات السياسة فيه أو أثارة من فتنه وحروبه ، لقد ترك البلاد جملة ونزح عنها

(١) ديوان الشاب الظريف ص ٧١

إلى دمشق وحماة ليجد فيهما مرتزقاً، ولشعره متنفساً . . . وظفر الشعر من الشاعر فى أحضان ملك حماة المؤيد وابنه الأفضل — وهما من بقايا الأيوبيين — بجملة من القصائد الجيدة والقوية التى سجلت مآثر هذين الملكين الكريمين ومدحهما بما يعيد إلينا ذكرى أبى تمام والمعتصم، أو ذكرى البحترى والمتوكل، أو ذكرى المتنبى وسيف الدولة بن حمدان،[1] وها هو ذا ابن نباتة يقول للمؤيد :

أنت الذى أنقذتنى من يدى زمنى
يداه من بعد إشراف على العطب
أجابنى قبل أن ناديت جودك إذ
ناديت جود بنى الدنيا فلم يجب

ويقول فى ولد الأفضل بن المؤيد :

الشائدين الملك بالهمم التى
وقف السهى ساه لها يتعجب
والقابلين بجودهم سلع الثنا
فإلى سوى أبوابهم لا تجلب
والمالكين رقابنا بصنائع
سبقت مطامعنا فليست ترقب

ويجعل الملك المؤيد غيثاً فى دهر جدب، وظلا فى هجير صحراء فى قوله :

وجادبك الدهر البخيل وطالما
تدفق عذب الماء من قلب جلمد
فياليت قومى يعلمون بأننى
تعجلت من نعماك أضعاف مقصدى

---

(١) عصر سلاطين المماليك ٨/٨، ٩

لا تستقر بكفه أمواله   فكأنها نوم بمقلة أرمد[1]

وفى هذه النماذج ما يؤكد فرار ابن نباتة بشعره من وجه المماليك إلى الشام ، بحثاً عن مناخ ملائم لإبداعه الفنى ، ومن الواضح أنه عثر على ضالته المنشودة ، ألا تراه يجهر بذلك فى قوله يمدح المؤيد :

مليك أعاد الشعر سوقا بدهره
فجئت إلى أبوابه متبضعاً
ووالله لولا باعث من مديحه
لأصبح بيت الشعر عندى بلقعا ...
ألم تر أنا قد سلونا بأرضه
مراداً لنا فى أرض مصر ومرتعاً[2]

ويدعو شهاب الدين السعدى (ت : ٧٨٥ هـ) شعراء مصر إلى الفرار قائلا :

وكيف يروم الرزق فى مصر عاقل
ومن دونه الأتراك بالسيف والترس؟![3]

أما زين بن الرعاد الخياط (ت : ٧٠١ هـ) فيتمنى رحيل المماليك عن مصر فى قوله :

ألا مالكم سدتم فساءت ظنونكم
ومن عادة السادات أن يحسنوا الظنا
عسى سفرة شرقية حلبية   تروح بكم منا وتغدو بكم عنا[4]

---

(١) الديوان ص ٢٣ ، ٢٥ ، ١٣١

(٢) المرجع السابق ص ٢٩٤

(٣) الدرر الكامنة ١ /٣٥٦

(٤) المرجع السابق ٤/ ٦٠ وما بعدها .

لقد نبا بابن نباتةوغيره المقام فى مصر ، فطوحت به وبغيره يد الغربة إلى بلاد قاصية ، يعرضون فيها بضاعتهم من الشعر ، ويرجون من وراء ذلك لأنفسهم مرتزقاً ومكانة . .

لكن الشوق إلى الوطن الحبيب مصر كاد يعصف بابن نباتة، فها هو ذا يقول : مضمنا :

يا بارقاً من نواحى مصر مبتسما
بلغ تحية هامى الدمع منهمل
واذكر إذا هب معتل الصبا جسدى
فربما صحت الأجساد بالعلل

ويقرر أن قلبه فى مصر وقالبه فى الشام :

قلب بمصر وقالب بالشام من مبلغ قلبى ومصر سلامى

ويذرف الدمع مدراراً ، شوقاً وتحنانا :

جرى دمعى إلى ولدى وأهلى فقالت مصر : نيلى فى الزيادة

ويلح عليه شوقه فيقول :

وإنى لمشتاق إلى ظل روضة
على النيل أروى العيش منها عن النضر...
تجمعت الأمصار فى مصر طاعة
وهل تجمع الأمصار إلا على مصر[1]

إن الغربة التى هى ذلة وكربة قد أيقظت فى الشاعر المرهف الإحساس المتدفق نحو الوطن، وهو إحساس لم يستطع يأسه من المماليك أن يواريه، ولم ينل منه سوء حاله شيئاً مذكوراً ... فلله در الشاعر .

(١) الديوان ص ٣٨٣ ، ٤٧١ ، ١٦٦ ، ١٩٦

٣ — هوان الشعر :

احتضر فى البيئة المملوكية الحافز الذى كان يحرك الشعر والشعراء، وقل تشجيع الجمهور، وندر تلقيه إبداع الشعراء بالقبول، فهان الشعر — تبعا لذلك — على الشعراء، أنفسهم، ومضاضة الحرمان والتجاهل لم تزايل خواطرهم، وفى شعر هذه الحقبة ما يقرر هذه النتيجة . فها هوذا ابن نباته يقول للناصر محمد بن قلاوون :

فمن مبلغ تلك العواطف قصة تكاد لها صم الصفا تتفطر
إلام وأنت الغيث أرجع ظامئا
وحتام يا ظل العفاة أهجر ؟!
وقالوا : فلان رم بالشعر عيشة
فياليت أنى ميت لست أشعر
تصرم أقصى العمر أدعوك للمنى
وأرقب آفاق الرجاء وأنظر
وأصبر والأيام تقتلنى أسى فها أنا فى الدنيا قتيل مصبر
أرى دون حظى مسلكا متوعرا
إذا ما جرت فيه المنى تتعثر
ويحمر دمعى حين تصفر وجنتى
فألبس ثوب الهم وهو مشهر
ولا ذنب لى عند الزمان كما ترى
سوى كلم كالروض تبهى وتبهر . . .
فرائد إن عادت على مصائبا
فأنت بتدبير القضية أجدر !!

إذا جمع الإنسان أطراف قصده
لنفحة مال فهو جمع مكسر[1]

لقد سقطت هيبة الشعر ومكانته من النفوس ، وولى زمانه على حد قول الإدفوى :

ولى زمانى وانقضت أوقاته وذهابه من جملة الأشراط[2]

فمن الحق أن يستنيم الشاعر إلى الشعر ، وقد كسدت تجارته ، وبارت بضاعته ، وأن يتخذه سبيلا إلى الرزق ، وما أشد صراحة ابن نباته فى تقريره هذا :

صناعة الشعر تجنبتها وذاك يا منيتى الواجب
بحر العطايا قد نحا غيرها فأنت بورى وأنا هارب

وفى قوله :

نحن المساكين لأرزاقنا باب طواه الدهر أو عسره[3]

وقد تأبى ابن الوردى على الشعر ، وجعل الفضل فى رفعة المكانة للعلم لا للشعر ، يقول ناصحا ابنه :

بنى إياك ونظم الشعر فإنه بالعلماء يزرى
والله لولا شهرتى وذكرى بالعلم كان الشعر حط قدرى

ويغضب الغضبة المضرية من كل شاعر يتكسب بشعره ، وإن افتقر ، إذ لايجدى الشعر فى البقر ، ولايغنى من جوع ، فى قوله :

---

(١) الديوان ٢١٠ .
(٢) الدرر الكامنة ١ / ٤٥٢ .
(٣) الديوان ص ٥٨ ، ٢٣٦ .

واغضبا من شاعر وإن أقل وافتقر
أهان ما يعلمه فقلد الدر البقر ! [١]

وقول أبي الحسين الجزار ، وفيه تورية رائعة ، واستلهام للجانبين : المادى والمعنوى :

كيف لا أشكر الجزارة ما عشت حفاظا وأهجر الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجينى وبالشعر كنت أرجو الكلابا [١]

هذه الصرخة صدى لصرخة أبي شامة المقدسى (ت : ٦٦٥ هـ) في قوله :

كيف لا ألزم الفلاحه باقى عمرى لازال حصدا وبذرا
وبها صنعت ماء وجهى عن الناس جميعاً وعشت فى القوم حرا [٢]

وما أقوى ما أحتج به السراج الوراق فى قوله الذى نقله من خطه صلاح الدين الصفدى وأورده فى الغيث المسجم :

مالى ونظم الشعر ؟ بانت صبوتى
والناس قد رغبوا عن الآداب
أأقوله عبثا بلا سبب له والشعر مبنى على الأسباب ؟

بيد أن هذا لا يعنى توقف موكب الشعر ، أو كسوف أهلته كسوفا كليا ، ولكن يعنى فقدان الشعر لمكانته التقليدية : إذ الشعراء ما فتئوا يقرضون الشعر ، وينظمون أحاسيسهم الذاتية ، ومشاعرهم تجاه مجتمعهم

---

(١) الديوان ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .
(١) خزانة ابن حجة ص ٢٤٨ .
(٢) الذيل على الروضتين ص ٢٢٢ .

استجابة لفنيتهم الشاعرة صحيح أن البيئة التى عاش فيها الشعر فى عهد المماليك كانت جدباء قاحلة خالية من العناصر المغذية لنبات الشعر ، إلا أن قرائح الشعراء المجيدين ظلت على عهدها تسخو بالدرر والغرر ، لحب هؤلاء الشعراء للشعر لم يخب نبضه ، ورؤيتهم فيه الفن الرفيع لم يشحب تألقها ، ولهذا حنت إليه نفوسهم ، وانعطفت نحوه قلوبهم ، لارغبة فى النوال ولا طمعاً فى المال ، ولكن لأن فن الشعر قد تملكهم ، وأخذ بمجامع قلوبهم ، فنظموا درره ، وجادوا وأجادوا ، وما مطارحات شعراء العصر وتباريهم فى عالم القريض ، والمساجلات والمعارضات والمداعبات التى ما كانت تنقطع بين شعراء مصر والشام ، إلا دليل على الجانب الإيجابى فى ميدان شعر العصر ، هذا الجانب الذى تدعمه الخصاصة وشظف العيش والشقاء المحدق بالشعراء المنقطعين للشعر ، أطلق ألسنتهم بالروائع فى الشكوى وغيرها . .

وليس هذا رجما بالغيب ، ففى الموروث الشعرى عن العصر ما يؤكد هذه الحقيقة ، فالحق أن شعراء العصر ، وقد حرمتهم أوضاع المجتمع عوامل التشجيع ، ولم يجد فنهم الشاعر وسائل الحياة لدى الرؤساء ، ولم تجذب الدولة بضيعة ، اضطر والآن يلتمسوا لهذا الفن أسبابا للحياة أخرى ، يتعلق بها ليعيش كأى نبت أغفلة أهله ، وهو على الحياة أحرص، إنه ليضرب بجذره فى باطن الأرض يتحسس بشعريات شمه منابع الماء حتى يجدها .

وهكذا وجد الشعراء فى نزعات العصر وفى اتجاهاته ورغباته وإحساساته ، وسيلة من وسائل الحياة لشعرهم ، فتشبثوا بها واتخذوها دعائم ليحيا بها ويعيش عليها وينمو ويزدهر ، وبرهنوا بذلك على حيوية

قوية وفنية طاغية جديرة بالإعجاب ، إذ لم يأذنوا لموهبتهم أن تذبل ، ولا لشاعريتهم أن تموت »[١] .

لقد جذبت الشعراء إلى الشعر أجواذبه ، وأزتهم له شياطينه ، فكانوا يفيئون إلى ظله الظليل فينة بعد فينة ، وآونة بعد آونة ، فلم يهن عليهم جملة ، وعذرهم فى هوان الشعر عليهم ، أنه ما عاد يسد جوعا ولا ينضر عيشا ولا ييسر رزقا ولا يوفر جاها ، وتكاليف الحياة لم تتوقف ، وصراخ الجياع لم يتبدد ، وحرب الأمعاء الضروس لم تكف . .

٤ — انصراف الشعراء إلى الوظيفة أو التأليف أو الحرفة :

لم يعد الشعر مغنما أو مرتزقا ، ولم يعد الشاعر بالذى يأبه له المماليك أو يقيمون له وزنا ، فلقد عريت أفراس الشعراء ورواحلهم ، واحتوى اليأس من رواج الشعر نفوس الشعراء ، وأغطش الليل ، وغشى الفقر الشعراء من كل جانب حتى صاح صائحهم :

لم يبق عندى ما يباع بدرهم
إلا بقية ماء وجه صنتها[٢]

فاضطروا إلى الانحراف عن الميدان بسلاحهم المفلول ، واندسوا فى غمار الناس ، طلبا للرزق ، فمنهم من اشتغل بالقضاء ، كابن الوردى ، ثم ضاق ذرعا بتسلط المماليك عليه فتركه غير نادم ، يقول :

إنى تركت عقودهم وفروضهم
وفسوخهم والحكم بين اثنين

---

(١) عصر سلاطين المماليك ٢١٦/٨

(٢) ابن نباته فى الديوان ص ٤٨

ولزمت بيتى قانعا ومطالعا كتب العلوم وذاك زين الزين[1]

ومنهم من اشتغل بالحسبة ، كالبوصيرى ، ثم امتنع عنها ، لما فيها من إجحاف وظلم ، يقول :

لاتظلمونى وتظلموا الحسبه فليس بينى وبينها نسبه
غيرى فى البيع والشرادوب وليس فى الحالتين لى دربه..
تالله لايرضى فضلى ولا أدبى ولا طباعى فى هذه السبه ..
لم أر فى قبح فعلها حسنا كالكلب فىالسوق يلقح الكلبه
أعوذ بالله أن أكون كمن تغلبه فى الرقاعة الرغبه[2]

واضطر إلى أن يفتح كتابا لتحفيظ القرآن ، يقول :

لو لم أرض عقلى بمكتب صبية حميت على عوارض البرسام(*)
مازلت أرغب أن أكون معلما فيكون فضلى مكمل الإحلام
قد صار كتابى وبيتى من بنى غيرى وأبنائى كبرى حمام
أعطيهم عقلى وآخذ عقلهم فأبيع نورج منهم بظلام
لو أن لى عن كل طفل منهم أو طفلة شاة من الأنعام
لضربن للأمثال لابن نفاية من كثرة الأبقار والأغنام[3]

ومنهم من اشتغل بالكتابة فىديوان الإنشاء أودواوين الدولة بعامة كبدر الدين بن شجاع (ت : ٧٣٤هـ) الذى عمل منشأ فىديوان الإنشاء ثم رفض الوظيفة ، رغبة عن الإهانة وشغل الوقت وصغر الراتب ، واتجه إلى التعليم ، وفى ذلك يقول :

---

(١) الدرر الكامنة ٣/٢٧٤ .
(٢) الديوان ص ٩٩
(*) البرسام : كلمة فارسية أطلقها العرب على التهاب الصدر .
(٣) الديوان ص ١٤ .

لا تُمى فى صناعتى مستخفا ... بى إذا كنت للعلا مستحقا[1]
ماغزال يقبل الكف منى ... بعد برى ولم يضع لى حقا

وابن نباته رأس شعراء العصر أدخل الديوان وكتب فى التوقيع ، وفى وظيفته يقول :

يا سائلى فى وظيفتى عن ... ضيعة حالى وعن معاشى
ما حال من لا يزال يطوى ... مسافة القصر وهو ماشى

ويقول موريا :

يا سائلى عن حظ خطى وقد ... أهملت فى كتاب هذى البقاع
معلوى الثلث وياليتـه ... ورسمى النسخ وثوبى الرقاع[1]

وتقى الدين بن حجة الحموى عمل منشئا فى الديوان الشريف بمصر على عهد المؤيد شيخ :

وعز الدين القيسرانى (ت : ٧٠٩ هـ) اشتغل بالكتابة فى ديوان الإنشاء ، ثم بالتدريس فى المدرسة الفخرية بالقاهرة ، كتب إليه السراج الوراق — وهو فى وظيفته — :

مولاى عز الدين لى حاجـــة ... أنت تراها فرصة المنتهز
شبعت ذلا فعسى مرة ... تجعلنى آخذ رزقى بعز[2]

ومنهم من جذبته جواذب العلم والتأليف والتصنيف فى الأدب واللغة وجمع الشعر والنكات والمواعظ والأمثال والحكم ، كابن نباتة صاحب مجمع الفرائد وسرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون وغيرهما ، وابن حجة صاحب خزانة الأدب وغاية الأرب ، وثمرات الأوراق وغيرهما ،

(١) الدرر الكامنة ٢ / ١٠٩ (٢) الديوان ص٢٧٦ ، ٣١٨
(٣) الدرر الكامنة ٢/٤٩

وصلاح الدين الصفدى صاحب الوافى بالوفيات ، والغيث المسجم فى شرح لامية العجم ، وغيرهما ...

ومن شعراء العصر وظرفائه من انحرف إلى طريق الاحتراف بحرفة ما — ولو تدنى مستواها الاجتماعى — كالجزارة والوراقة والكحالة والدهانة والحمامية والخياطة ، وعرف العصر من الشعراء المحترفين أبا الحسين الجزار ، وسراج الدين الوراق ، وشمس الدين بن دانيال الكحال ، وشمس الدين محمد بن على الدهان (ت : ٧٢١ هـ) ونصير الدين الحمامى ، وزين الدين الرعاد الخياط ، وغيرهم .

هؤلاء المحترفون لم يتركوا ساحة الشعر خالية لغيرهم ، وإنما كانوا ينفثون مرارتهم شعرا ، وينظمون مضاضتهم قريضا ، يصرخون بجناية بجتمعهم على أدبهم ؛ ويتهكمون ويسخرون حتى من الشعر ، وها هو ذا أبو الحسين يقول :

لاتعبنى بصنعة القصاب ... فهى أزكى من عنبر الآداب

كان فضلى على الكلاب فمذ صر ... ت أديبا رجوت فضل الكلاب

ويورى فى صناعته :

ألا قل للذى يسأ ... ل عن قومى وعن أهلى

لقد تسأل عن قوم ... كرام الفرع والأصل

ترجيهم بنو كلب ... وتخشاهم بنو عجل [1]

ويقول ابن دانيال موريا :

يا سائلى عن حرفتى فى الورى ... وضيعتى فيهم وإفلاسى

ما حال من درهم إنفاقه ... يأخذه من أعين الناس ؟!

---

(١) خزانة الأدب صـ ٢٤٨ وما بعدها

ويقول :

وداويت العيون فكم جفون
بكحلى ما تنام مدى الليالى [1]

ويقول نصير الدين :

ومذ لزمت الحمام صرت فتى بها ، يدارى من لا يداريه
أعرف حر الأشياء وباردها وآخذ الماء من مجاريه[2]

وإذن ، فقد احترف بعض شعراء العصر حرفا ، طلبا للرزق ، بعد أن أقفر منه وادى الشعر . وهذا الاتجاه يعنى أنه كان اتجاه المضطر المرغم الذى لم يجد فى سوق الشعر ما يقتات به ، لكنه ما قلاه وما جفاه ، بل ظل منتجعه وهواه ، تستريح فى أفيائه نفسه ، ويسكن فى أدواحه خاطره ، ويستجم فى مطارحه قلبه ، فانحرافه عنه للارتزاق ، ووداده إليه متصل باق .

ولعل فى هذا القول ما يفسر ظاهرة الحيرة بين الحرفة والشعر عند المحترفين ، والتى تتضح فى مثل قول أبى الحسين الجزار :

أصبحت فى أمرى ولا أشكو لغير الله حائر
ولكم يذكرنى الشقا ء بأمره ، ولكم أكاسر
واللحم يقبح أن أدعو د لبيعه والشعر بائر
ياليتنى ما كنت خز ارا ولا أصبحت شاعر

(١) المختار من شعر بن دانيال ص ٩٢ ، ٢٧٤
(٢) الغيث المسجم فى شرح لامية العجم ٢/٤٣٣

وفى مثل ابن دانيال :

فإنى أنحس الثقلين طرا فكل النحس ينقل من مثالى
ونظم الشعر صرت به فريدا وطلت به على السبع الطوال
وقطعت العروض بفاعلاتن بأوتاد وأسباب ثقال
وطببت الأنام فكم أناس قتلتهم بقبض وانسهال[1]

وهم من هذا المنطلق لم ينسجموا مع حرفهم الانسجام الذى ينشده إتقان الحرفة . فلله در شعراء هذا العصر فقد عانوا وعاشوا فى كبد .

(١) المختار من شعر ابن دنيال ص٢٧٢ ، ٢٧٤ .

الفصل الثالث

أغراض شعر الخصاصة

لا شك أن الفقر كان من أهم أسباب ظهور مجموعة الصعاليك فى الجاهلية . وهذا عروة زعيمهم يقول

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا
من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذرا أو يصيب رغيبة
ومبلغ نفس عذرها مثل منجح (1)

فالجوع أقسى سياط الفقر على جسد الفقير، وهو أول الدوافع المسيطرة على حياة الإنسان ، تراه قد وجه ذوى الخصاصة فى الجاهلية إلى الصعلكة ، ووجه ذوى الخصاصة فى الدولة المملوكية إلى التكسب بغير الشعر ، بعد أن استبد بهم اليأس ، وضاقت عليهم الدنيا بما رحبت ، وراحوا ينظمون أناتهم أبياتا ، وينسجون من حسراتهم أشعارا ، ويبثون لواعجهم إزاء طغيان الفقر ، وانكسار النفس ، ومرارة الشعور بالهوان ، وذل الحرمان .

ومن هنا خبا فى شعر هؤلاء المعوزين ، الذين طحنتهم المسغبة ، صوت الترفع على محنة الطوى فى قول عنترة :

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل (2)

---

(1) ديوان عروة ، بشرح ابن السكيت ، طبعة الجزائر ص٩٩

(2) ديوان عنترة بتحقيق : محمد سعيد مولوى ، الطبعة الثانية ص ٢٤٦

وفى قول الشنفرى :

أديم مطال الجـــوع حتى أميته
وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهل

وأستف ترب الأرض كى لا يرى له
على من الطول امرؤ متطاول

ولولا اجتناب الذام لم يبق مشرب
يعاش به إلا لدى ومأكل

ولكن نفسا حــرة تقيم بى
على الضيم إلا ريثما أتحول[1]

لقد حل محل الترفع الذى تلاشى فى هذا الشعر الأسى واليأس . حتى أن منهم من تمنى الموت ، فراراً من الضائقة ، وغبط عليه الأموات ، ورآهم أسعد حظا من الأحياء ، فهم على الأقل قد تخلصوا من أعباء القهر، ومطاردة الغرماء . وها هو ذا ابن حسام القفطى يقول :

طوبى لسكان القبور فإنهـــم
حلوا بساحة أكرم الكرماء

فازوا بتعجيل القرى من ربهم
فى خفض عيش دائم النعماء

نالوا المنى فى قربه وجواره
وتخلصوا من منـــة الغرماء[2]

---

(١) أعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشرى ، بمجموعة الرسائل الكمالية ٣٢/١١ الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٩٩ هـ

(٢) الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد للأدفوى . تحقيق سعد محمد حسن ص ٣٢٠

اشعر الخصاصة — إذن — تسرى فى أوصالة الروح البائسة، وما الجانب الفكاهى فيه إلا من قبيل تسرية المخزون وتسلية المكلوم، ورقص الطائر الذبيح من الألم...

لقد ظوف شعر الخصاصة بآفاق الشكوى ، واستجدى ، وزهد ، وصور مظاهر الفقر ، وكان فى كل حالاته ناقداً لاذعا ، يسم المجتمع بميسم قد يبدو أحياناً ناعم الملمس ، لكنه حاد القطع .

ومما يلفت النظر أن موضوعات هذا الشعر ليست جديدة كل الجدة ، بل هى فى جملتها معروفة متداولة،ولكن الفرق هو فى تعميقها ، وتوسيع مساحتها ، والإكثار منها إكثاراً يكاد يكون سمة العصر وعنوانه ..

فضلا عن تمثيلها للبعد النفسى والاجتماعى لجمهرة شعراء الدولة المملوكية تمثيلا دقيقاً واقعياً ، فهذا الشعر ولا ريب تصوير لحياة شعرائه وواقعهم ولسوف نجد ألوانا نسر بها ونطرب لها ، وألوانا نكفهر معها ونقطب ، فإذا كان شعراء العصر لم يعبروا فى معظم الأغراض التى قالوا فيها الشعر عن حقيقة أحسوا بها « فرأيت مثلا كل تقى ورع لم يعرف الخمر قد قال فى وصفها ، ونبش عن معانيها قبور الدواوين القديمة، كما تغزلوا وأفحشوا ولم يكن الفحش من صفات قائله ، وتحمسوا وإن لم يشهد متحمسهم حربا »[1] فإن شعراء هذا اللون كانوا فيه صادقين ، فهم قد عرفوا الذل، وعركتهم المسكنة ، وطحنتهم المسغبة، وأضناهم الجوع وتضور العيال ..

وتعال نلج باب دراسة أغراض هذا الشعر :

---

(١) الأدب العربى من الانحدار إلى الازدهار ، د. جودت الركابى ص ١٤٨

١ — الشكوى :

كثر غرض الشكوى واتسع ميدانه ، إذ كان شعراء العصر المعوزون « أحق بالشكاية وأولى ، وكانوا أجدر بالتصريح بها والإلحاح عليها وإعلانها ، فقد حرمتهم الدنيا الجاه والخير والمنصب ، بل ربما حرمت بعضهم حتى اضطر إزاء إلحاح الحاجة عليه أن يتكفف الناس ، . . وأن يرحل من بلد إلى بلد سعيا وراء قوته وقوت عياله ، وأن يصرح بحاجته ويكشف عن هوانه ويسأل العطاء » .

كان ذوو الخصاصة — إذن — « أحق بأن يكون فن الشكوى فنا أصيلا في شعرهم ، وخصوصية مميزة تطبع الكثير من قصائدهم بطابعها »[1] .

وقد دار هذا الفن حول شكوى صروف الزمن وغدره ، وبخل الحكام وشح الأغنياء ، والفقر والمرض وسوء الحال ، من ذلك قول ابن الوردي :

ما للزمان عن المروءة عار ما عنده في منكر من عار
أشكو إلى الله الزمان فدأبه عز العبيد وذلة الأحرار[2]

ويشكو ابن نباتة قائلا :

ما أجور الأيام في إهمالها
حقي ، وأعدلها عن الإنصاف !!

(١) عصر سلاطين المماليك ٨/٣٠٠
(٢) الديوان ص ٣١٢

وأشكو التأخر فى الزمان وهذه
شيمى لديه وهــذه أسلافى

ويمضه جوع عياله فيقول شاكيا:

تقول بنى الجائعون أما ترى
من الجوع شكوانا لـكل فريق
وقد كنت ذا نظم وسعى بيرفا
فلم جئت من هــذا وذا بدقيق

ويتلطف فى شكوى الدهر وعتابه قائلا (مضمنا):

يا دهر رفقا فما أبقيت لى أملا
فى ثروة أتمناها ولا جذل
قطعت باليأس آمالى لديك فقد
تركتنى أصحب الدنيا بلا أمل[١]

ويشكو البوصيرى الفقر وكثرة العيال فيقول:

من لشيخ ذى علة وعيال ثقلت ظهره بغير ظهير
أثقلوه وكلفوه مسيرا ومن المستحيل سير ثبير
فهو فى قيدهم بذاد من السعى لتحصيل قوتهم كالأسير
وعتت أمهم على ولجت فى عتو من كبرتى ونفور
ودعت دونهم هنالك بالويل لأمر فى نفسها والثبور...
وعصانى نظم القريض الذى جر ذيولا على قريض جرير

---

(١) الديوان ص ٣٢٤ ، ٣٥١ ، ٤٢٢

وازدرتنى بعض الولاة وقد أصبح شعرى فيهم كخبز الشعير

ونهتنى عن المسير إليهم
شدة اليأس من سخا فى مسير . . .

وكزغب القطا ورائى فراخ من إناث أعولهم وذكور

يتعاوون كالذئاب وينقضون من فرط جوعهم كالنسور ...

ويبلغ به يأسه إلى الحد الذى يقول فيه :

كيف الخلاص من البنين ومنهم
قوم ورائى وآخرون أمامى

فارقتهم طلبا لرزقهم فلا صرفى يسرهم ولا استخدامى

من كان مثلى للعيال فإنه بعل الأرامل أو أبو الأيتام

أصبحت من حملى همومهم على
هرمى كأنى حامل الأهرام[1]

ويتبرم الجزار من ملاحقة الفقر حتى بعد احترافه الجزارة التى خابت فيها ظنونه قائلا :

أصبحت لحاما وفى البيت لا أعرف رائحة اللحم
واعتصت من فقرى ومن فاقتى
عن التذاذ الطعم بالشم

جهلته فقرا فكنت الذى أضله الله على علم[2]

(١) الديوان ص ١٥٤ وما بعدها ، ٢٥٥
(٢) خزانة ابن حجة ص ٢٤٨

وينفطر الأنين من قول الشراج الوراق :

مولاى عز الدين لى حاجة
أمت تراها فرصة المنتهز

شبعت ذلا فعمى مرة
تجمانى آخذ حق بعز[1]

وقوله :

إذا بحت بالشكوى عنيت معاشراً
بلا راحة فى مدحهم أتعبوا ذهنى

يزيدوننى رطب اللسان ومن رأى
سراجا غدا رطب اللسان بلا دهن ؟ ![2]

وتمتزج بيأس إبراهيم بن على المعمار (ت : ٧٤٩ هـ) من سخاء الأغنياء نغمة شاكية كأنها وجع الأنين ، وذلك فى قوله :

يا أغنياء الزمان هل لى جرائم عندكم عظام ؟ !
نفتشكم لا تزال غضبى فلا سلام ولا كلام
والذهب العين لا أراه عينى من عينه حرام[3]

---

(١) الدرر الكامنة ٢/٤٩٣

(٢) الخزانة ص ٢٤٥

(٣) الدرر الكامنة ١/٥١

لقد فاض فن الشكوى بالمراره واللوعة والحسرة، وماجت بنماذجه المعبرة فى صدق عن حال كثير من شعراء العصر بطون الدواوين، وفاضت بها كتب التاريخ والتراجم، وهى على مافيها من روح يائسة مستولية على نفوس الشعراء لم تمنع بوارق الأمل من الظهور فى سمائهم وإن تباعد ظهورها، واختفى وميضها بنفس السرعة التى لاح بها، ومن هنا ظهر غرض الاستجداء بين أغراض شعر الخاصة .

٢ — الاستجداء :

وهو لون يبعثه الأمل، سواء بعد ذلك أخاب أمل الآمل أم لم يخب، وقد تذرع إليه الشعراء المكدون بالفقر وسوء الحال وضيق ذات اليد، وأسى النفس إزاء جوع الأولاد، والطعن فى السن، والإعياء، ومنه قول البوصيرى يستجدى الوزير بهاء الدين بن على بن محمد :

يا أيها المولى الوزير الذى … أيامه طائعة أمره
إليك نشكوا حالنا إننا … حاشاك من قوم أولى عسره
فى قلة نحن ولكننا … عائلة فى غاية الكثره
صاموا مع الناس ولكنهم … كانوا لمن أبصر عبرة..
فارحمهموا إن عاينوا كعكة … فى كف طفل أو رأوا تمره
تشخص أبصارهم نحوها … بشهقة تتبعها زفره
فكم أقاسى منهم لوعة … وكم أقاسى منهم حسره
كم قائل يا أبتا منهمو … قطعت عنا الخير فى كسره
ماصرت تأتينا بفلس ولا … بدرهم ورق ولا نقره
وأنت فى خدمة قوم فهل … تخدمهم يا أبتى سخره

ياخيبة المسعى إذا لم يكن يجرى لنا أجر ولا أجره
وكيف يخلو الطفل من فطنة وكل مولود على الفطره[1]

والقصيدة على تواضعها الفنى ، وانحـــدارها إلى الروح الشعبية فى التعبير تفصح عن حاله وعياله وفقره ومعاناته ، وتستل السخائم ، وتستدر العطايا .

ويستجدى عليا بن الصحابى بقوله :

أيها الصاحب المؤمل أدعو
ك دعاء استغاثة واستجاره

أثقلت ظهرى العيال وقد كنت زمانا بهم خفيف الكاره *
ولو أنى وحدى لكنت مريدا فى رباط أو عابداً فى مغاره ..
لا تكلنى إلى سواك فأخيا ر زمانى لا يمنحون خياره
ووجوه القصاد فيه حديد
وقلوب الأجواد فيه حجاره[2]

ويقول ابن نباته :

لقد أصبحت فى حال يرق لمثلها الحجر
مشيب وافتقار يد فلا عين ولا أثر

لئن ضاع مثلى عند مثلك إننى
لعمر المعالى عند غيرك أضيع

---

(١) الديوان ص ١٦٥ - ١٦٧ * أى خفيف الحمل
(٢) المرجع السابق ص ١٢٣

متى تنجع الشكوى إذا أنا لم أجد
لديك اعتناء غير أنك تسمع

حبست لضيق الرزق حبس حمامة
فها أنا فيكم بالمدائح أسجع

ويستحدى ابن نباتة القاضي شهاب الدين بن فضل الله بقوله :

تشكو لأنعمك التى هى للعفاة سحائب
حالى التى يرثى العدو لها فكيف الصاحب؟!(١)

ويعتفى الدنيسرى بن العطار قائلا :

أصبحت بطال والأولاد أربعة
محمد وثلاث موتهم يجب

فإن تحيل فى رزق بمدحكم
أبو محمد البطال لاعجب(٢)

ويحمل فى الطلب أحمد بن عبد الله الخطابى الكتبى ، ويرق فى المسألة ويقتبس . فى قوله :

الراحمون لمن فى الأرض يرحمهم
من فى السماء فباعد عنك وسواساً

وقل أعوذ برب الناس منه أذى
لايرحم الله من لايرحم الناسا(١)

---

(١) ديوان ابن نباتة ص ٢٥١ ، ٣١٢ ، ٦٥
(٢) الدرر الكامنة ١ / ٥٠٧
(٣) السابق ١ / ٢٩٠

ويبدو أن شعراء الخصاصة كانوا يندفعون بالمسألة إلى الملوك تارة، والأثرياء تارة، والأصدقاء تارة أخرى، يحفزهم الأمل والتمنى أحياناً والود والصداقة أحيانا .

ويبدو كذلك أن أمل هؤلاء المعتفين كان كثيراً ما يتحطم على صخور غلاظ الأكباد، وأن أمانيهم كانت سريعا ما ترتد إلى صدورهم بالحسرات. لهذا راحوا يمزجون المأساة بالملهاة، والعبرة بالبسمة فى فكاهة ظاهرها الهزل وباطنها التنديد والسخرية التى ترفع استفهاماً واحتجاجاً، من خلال الوصف الغامز واللامز .

٣ — الفكاهة والسخرية :

معروف أن الفكاهة ظاهرة اجتماعية، وخاصية إنسانية تثير غريزة الضحك لدى الإنسان، وقد تكبح فيه جموحا ففى كل فكاهة تنبيه على قيمة اجتماعية أو أخلاقية، فلم يكن شعراؤها فى دولة المماليك يسعون إلى إضحاك الناس بقدر ما كانوا يسعون من ورائها إلى تقرير فكرة، وإبراز عيب اجتماعى. وتجسيم جرم أخلاقى، أملا فى أن يفيق المجتمع من غفوته وأن يستعيد رشده، فيعطى القوس باريها، ويضع الأمور فى نصابها، يؤكد ذلك أن جمهرة الشعراء الذين تفكهوا ساخرين من دورهم ودوابهم وملابسهم كانوا من شعراء الخصاصة الواقعين تحت عنت الحاجة وسوء الحال، وأن هذا اللون الشعرى على كثرته آنئذ لم يبرح وصف مظاهر الفقر التى يتقلب فيها شعراؤه، ولقد كان هذا الشعر - إذن - تنفيثاً عن أحاسيس مكبوتة فى نفوس الشعراء . ونقداً اجتماعياً هادفاً لاذعاً، مفتناً فى تضخيم العيب وتجسيد النقائص، والمصريون نقاد بالفطرة، لذكائهم ونفاذ بصرهم، يتذوقون ويفهمون ويحكمون ويعلقون .

فالشاعر يتعزى ويسرى عن نفسه، ويعبر عن شقائه، ويتنفس عن

وكانت الفكاهة والنكتة والسخرية ، والألباء يفهمون ويستوعبون ،

لقد اتخذ الشعراء من أنفسهم وحياتهم ودورهم وملابسهم ودوابهم مادة لما يعرضونه من صور ساخرة تجسد الفقر وتبرز العناء ، فى غياب روح التراحم والتكافل بين الناس، ومن الذين سخروا من دورهم كمال الدين ابن المبارك الشاعر المصرى فى قوله :

دار سكنت بها أقل صفاتها أن تكثر الحشرات فى جنباتها

الخير عنها نازح متباعد والشر دان من جميع جهاتها

من بعض مافيها البعوض ، عدمته

كم أعدم الأجفان طيب سناتها

وتبيت تسعدها براغيث متى غنت لها رقصت على أنغماتها

قالوا : إذا ندب الغراب مساكناً

يتفرق السكان عن ساحاتها

وبدارنا ألفا غراب ناعق

كذب الرواة فأين صدق رواتها ؟!!

ويستمر ابن المبارك المصرى فى وصف هوام داره فلا يترك حشرة أو كارثة إلا أوردها وجعلها من صفات داره[1]

ومن فرسان هذه الحلبة أبو الحسين الجزار القائل فى وصف داره المتداعية التى تريد أن تنقض :

ودار خراب بها قد نزلت ولكن نزلت إلى السابعه

طريق من الطرق مسلوكة محجتها للورى شاسعه

(١) انظر مطالعات فى الشعر المملوكى والعثمانى ، د. بكرى شيخ أمين ص ٢٨٤ ومابعدها .

فلا فرق مابين أنى أكو ... ن بها أو أكون على القارعه
تساورها هفوات النسيم ... فتصغى بلا أذن سامعه
وأخشى بها أن أقيم الصلاة ... فتسجد حيطانها الراكعه
إذا ماقرأت إذا زلزلت ... خشيت بأن تقرأ الواقعه

ونصير الدين الحمامى القائل :

لى منزل معروفه ... ينهل غيثاً كالسحب
أقيل ذا العذر به ... وأقبل الجار الجنب[1]

وابن دانيال يعرض علينا صورة لداره الضيقة المنتنة التى غدت مأوى لهوام الأرض وحشراتها ، ويصور فراشه البالى وأثوابه المرقعة فى قوله:

أصبحت أفقر من يروح ويغتدى
ما فى يدى من فاقـة إلا يدى
فى منزل لم يحوى غيرى قاعدا
فإذا رقدت رقدت غير ممـدد
لم يبق فيه سو رسوم حصيرة
ومخـدة كانت لأم المهتـدى
ملق على طراحة فى حشوها
قمـل كمثل السمسم المتبـدد
والفأر يركض كالخيول تسابقت
من كل جرداء الأديم وأجرد
هذا وكم من ناشر طاوى الحشا
يبدو كشـل الفاتك المتردد
هـذا ولى ثوب تراه مرقعاً
من كل لون مثل ريش الهدهد

---

(١) خزانة ابن حجة ص ٣٣

لولا الشقاوة ما ولدت وليتني
إذ كان حظي هكذا لم أولد[1]

ويصور الجزار نفسه في يوم مطير، وقد خلع ثوبه اليتيم ليغسل، وراح ينتظره حتى يجف قائلا:

لبست بيتي، وقد زررت أبوابي
عليّ حتى غسلت اليوم أثوابي
وقد أزال الشتا ما كان من حمقي
دعني فستوقد الحمام أولى بي
أنام في الزبل كي يدفا به جسدي
ما بين جمر به ما بين أصحابي
وما تراقصت الأعضاء في جسدي
إلا وقد صفقت بالبرد أنيابي[2]

ويصف نصفيته التي أوهن طول العمر نسجها، وأوهى خيوطها، وهو ما يزال يرقعها ويأخذها بالعصر والدق والنشا في قوله:

لي نصفية تعد من العمر	سنينا غسلتها ألف غسله
لا تسلني عن مشتراها فقيها	منذ فصلتها نشاء بجمله
كل يوم يحوطها العصر والد	ق مرارا وما تقر بعمله
فهي تعتل كلما غسلوها	ويزيل النشاء تلك العله
أين عيشي بها القديم وذاك الر	فق فيها وخطرتي والشمله ؟!
حيث لا في أجنابها رقعة قـ	ـط ولا في أكمامها قط وصله[3]

---

(١) المختار من شعر ابن دانيال ص ١٥٤ — ١٥٦
(٢) فوات الوفيات لابن شاكر، تحقيق: د. إحسان عباس ٤/٢٩٢
(٣) المرجع السابق ٤/٢٨٧ وما بعدها والغيث المسجم ١/١٤٥

ويصف ابن دانيال برذونه قائلا (مقتبسا) :

قد كمل الله برذونى بمنقصة ... وشانه بعد ما أعماه بالعرج
أسير مثل أسير وهو يعرج بى ... كأنه ماشيا ينحط من درج
فإن رمانى على ما فيه من عرج ... فما عليه إذا ما مت من حرج

وفيه يقول أيضاً :

أصـــغ لشأنى فإنه عجب ... وإن يكن ما أقوله من هوس
دع ما حكوه عن وقعة الجمل ال ... أمس وخذ شرح وقعة الفرس
برذن سوء ، مولاى يعرفه ... أعرج أعمى أصم ذو خرس
وربما أوحلته بولتـــه ... فإن يبل فى التراب ينغمس
حاز جميع الأمراض قاطبة ... ولم تفته منها سوى الضرس[1]

لم يخن هؤلاء الشعراء ذكاؤهم ، ولم تخدعهم بصيرتهم ، حين اتخذوا الإضحاك وسيلة إلى إبراز المعايب وتعرية المثالب وإبداء جزئيات قضيتهم مثلهم فى ذلك كمثل الطبيب البارع يعمل مبضعه فى جسد مريضه تحت تأثير المخدر .

وما بروز هذا الفن فى هذه الحقبة كظاهرة أدبية بالغة الأهمية إلا دليل على قسوة الحياة على شعرائها ، ومدى معاناتهم وهوان أمرهم وضياعهم ، ومصداق ذلك فى مثل قول ابن دانيال :

قد عقلنا والعقل أى وثاق ... وصبرنا والصبر مر المذاق
كل من كان فاضلا كان مثلى ... فاضلا عند قسمة الأرزاق[2]

لقد عاب — إذن — سعى شعراء الخصاصة بهذا الفن أمام تحجر

---

(١) المختار من شعر ابن دانيال ص ٨٠ ، ٨١ — ٨٤
(٢) الدرر الكامنة ٤/٥٥

لسلاطين المماليك ، فاندفعوا إلى فن آخر منبثق عن خصاصتهم ، ووقع الألم فى نفوسهم ، وامتعاضهم لهوان أمرهم ، هو :

٤ — الزهد والتزهيد :

جاء بمثابة رد الفعل ، فقد بلغت قلوب الشعراء الحناجر ، واستولى اليأس على أقطارها ، وها هو ابن نباتة يرفع عقيرته صارخاً :

« من منصفى من أناس ... فيهم تحير ذهنى
لا أدرهما وزنوه ... وحاولوا الشعر منى
وهل سمعتم بشعر ... يأتى على غير وزن ؟

وما أحسن قول الغزى :

قالوا هجرت الشعر قلت لهم نعم
باب الدواعى والبواعث مغلق
خلت الديار فلا كريم يرتجى
منه النوال ولا مليح يعشق »[1]

لقد ذهبت شكاياتهم أدراج الرياح ، حتى ليقول علاء الدين ابن معتوق المعروف بابن الشردة (ت : ٧٥٠ هـ) فى مواجهة نائب الشام :

« وأراك لا تجدى إليك شكاية
إلا كأنك حائط لا ينطق »[2]

---

(١) النموذجان فى الغيث المسجم ٥٨/١

(٢) الدرر الكامنة ٧٧/٣

ولم يعد الاستجداء مجدياً . إذ غابت من نفوس القوم كل حمية أو مروءة ، فلم يعد لذلك فى قوس الصبر منزع ، وكيف لا ؟ وهذا ابن آقش المعروف بابن الحسام الافتخارى (ت : ٧٤٩ هـ) يقول :

بليت بالصبر من أيوب حين غدا
ينكر العيش فى أكلى ومشروبى
وزاد يعقوب فى حزنى لغيبته
فصبر أيوب لى مع حزن يعقوب[١]

من هنا راع شعراء الفاقة يقولون فى الزهد ، ويزهدون ، بعد أن نفضوا أيديهم من سخاء القوم و كأنى بهم فى زهدهم وتزهيدهم يحتجون على ماتردى إليه حالهم ؛ وها هوذا عز الدين القيسرانى يقول :

من طلب الأرزاق من عند من
يطعمه الله ويسقيه
يكون قد ضل سبيل الهدى وحاد عن نيل معانيه
لأن من يعجز عن نفسه يعجز عن أرزاق راجيه[٢]

ويقول شمس الدين السهر وردى (ت : ٧٤١ هـ) .

قد قنعنا بخمول عن غنى وبعز اليأس عن ذل التمنى
فكريم القوم لا أسأله فلماذا يعرض الباخل عنى ؟![٣]

وما أصدق ماتزهد به ابن الحنبلى الشافعى (ت: ٧٧٥ هـ) وما أبرع حكمته ، حيث يقول :

---

(١) المرجع السابق ٣/٢٣١
(٢) السابق ٢/٤٩٣
(٣) المرجع السابق ١/٣٥٦

معانقة الفقر خير لمن يعانقه من سؤال الرجال
ولا خير فى نيل من ماله عزيز النوال بذل السؤال[1]

ويلج معين الدين أبو العلاء الغزنوى هذا الباب ، فيقول ويجنس تجنيساً رائعاً:

لكسرة من خشين الخبز تشبعنى
وشربة من قراح الماء ترويني
وخرقة من جريش الثوب تسترنى
حيا وإن مت تكفيني لتكفيني
ولا أردد فى الأبواب مضطهداً
كما يردد ثور فى الفدادين
لأجعلن ولايات فتنت بها
فداء عرضى والدنيا فداديني [2]

لقد تسللت الحكمة إلى زهد ذوى الخصاصة الذين قلبت لهم الدنيا ظهر المجن ، فقلبوه لها بعد إدبارها عنهم ، وارعووا بعد ماراغت منهم ، إذ صقلتهم المعاناة ، هذا جمال الدين بن نباتة يقول متمثلا طريقة المعرى فى الزهد :

أستغفر الله لا مالى ولا ولدى
آسى عليه إذا ضم الثرى جسدى
عفت الإقامة فى الدنيا لو انشرحت
حالى ، فكيف وما حظى سوى النكد!!

---

(١) الدرر الكامنة ٢٧٨/١
(٢) المرجع السابق ٣٦٠/٢ وما بعدها .

وقد صدئت ولى تحت التراب جلا
إن التراب لجلاء لكل صدى
لا عار فى أدبى إن لم ينل رتبا
وإنما العار فى دهرى وفى بلدى
هذا كلامى وذا حظى فياعجبا
منى لثروة لفظ وافتقار يد
إنسان عينى أعشته مكابدة
وإنما خلق الإنسان فى كبد ...
حياة كل امرىء سجن لمهجته
فاعجب لطالب طول السجن والكمد
أما الهموم فبحر خضت زاخره
أما ترى فوق رأسى فائض الزبد !!
ما نافعى سعة فى العيش أو حرج
إن لم تسعنى رحمى الواحد الصمد
يا جامع المال إن الدهر منصرم
فابخل بمالك مهما شئت ، أو جد
ويا عزيزاً يخيط العجب ناظره
اذكر هوانك تحت الترب واتئد
عجبت من آمل طول البقاء وقد
أخنى عليه الذى أخنى على لبد !![1]

كان غرض الزهد — إذن — كغيره من أغراض شعر الخصاصة ، تعبيراً صارخاً عن الآلام والمرارة التى كان يتقلب فيهما الشعراء المعوزون. بيد أن شعر الخصاصة إن كان قد بعثته الذاتية ، وحفزته الآلام الشخصية،

---

(١) الديوان ص ١٢٥ وما بعدها .

فصور واقع الشعراء الهزيل، والحالة المزرية التى وصلوا إليها، فقد كان كذلك صورة صادقة لواقع المجتمع المرير فى عصر المماليك، وانعكاسا بينا لحياة عامة الناس . وصدى لمشاعرهم، مما يتأكد معه امتزاج الشعور الذاتى بالشعور الجماعى .

إذ لم يكن شعراء هذا الفن بنجوة عما يغطش حياة الأمة التى هم مرآتها ونبض أحاسيسها ، فهم فى جملة أمورهم كانوا يعيشون عيش الجماهير ، ويقاسون ماتقاسيه ، ويعانون ماتعانيه ، وذلك أدعى لأن يحسوا بأحاسيسها لا يفتعلونها، ويشعروا بمشاعرها لا يحاكونها، ويتجهوا اتجاهاتها لا يتكلفونها ، ولعل فى تجاوب المتلقى تجاوباً وجدانيا مع شعر الخصاصة مايؤكد صدق هذا الشعر ، وواقعية باعثه .

الفصل الرابع

إطلالة فنية على شعر الخصاصة

إذا أثنينا عنان البحث إلى ساحة شعر الخصاصة الفنية وقفنا على جملة ملحوظات يأتي في مقدمتها :

● أن شعر الخصاصة مافتىء ينبىء عن الخصائص الفنية والاتجاهات الغالبة في شعر العصر المملوكي ، إذ مابرحت بلا بله تصدح بين أفنان السهولة اللفظية والسماحة التركيبية ، اللتين تقودان أحياناً إلى العامية ، وتهيم في مطارح التورية والتجنيس والاقتباس والتضمين ، إلى غير هذه المطارح البديعية ..

ولا غرو ا فتوخى السهولة ، وسماحة التراكيب ، والابتعاد عن الجزالة اللفظية والفحولة الأسلوبية ، قانون العصر الأدنى ، المعبر عن الذوق العام ، وهاهو ذا صفي الدين الحلي — أحد عماليق الشعر في دولة المماليك (ت : ٧٥٠ هـ) — يكشف عن هذا الاتجاه في قوله :

إنما الحيزبون والدردبيس   والطخا والنقاخ والعلطبيس

لغة تنفر المسامع منها   حين تروى وتشمئز النفوس

وقبيح أن يذكر النافر الوحشي منها ويترك المأنوس

أين قولي هذا كثيب قديم   ومقالي عقنقل قدموس

لم نجد شاديا يغني قفا نبـ

ـك على العود ، إذ تدار الكؤوس

لا ولا من شدا أقيموا بنى أمـ ... ـى ، إذا ما أدبرت الخنديس
خل للأصمعى جوب الفيافى ... فى نشاف تخف فيه الرؤوس
درست تلكم اللغات وأمسى ... مذهب الناس مايقول الرئيس
إنما هذه القلوب حديد ... ولذيذ الألفاظ مغناطيس[1]

لقد كان هذا قانوناً عاماً لم يشذ عنه شعراء الخاصة . نلحظ ذلك فى مثل قصيدة البوصيرى التى منها فى فقره وعياله :

لهم من الخبز مصلوقة ... فى كل يوم تشبه النشره
أقول مهما اجتمعوا حولها ... تنزهوا فى الماء والخضره
وأقبل العيد وما عندهم ... قمح ولا خبز ولا فطره[2]

وفى مثل قول ابن نباتة :

سائلى عن شرح حالى ... كيف حال الضعفاء
فرط إسهال وفقر ... إن ذا حال خراء[3]

كذلك راج البديع فى شعر الخاصة ، ومنه قول سراج الدين الوراق (موريا مجنسا) :

لا تطمعن براحة من معشر ... سادوا بغير مآثر السادات
قطعت عن المعروف أيديهم وقد
سرقوا العلا فخلت من الراحات[4]

---

(١) الديوان بتحقيق : كرم البستانى طبعة بيروت ص ٦٢٤ وما بعدها .
(٢) الديوان ص ١٦٦
(٣) الديوان ص ١٩
(٤) خزانة الأدب ص ٣٣

وقول ابن دانيال :

كل من كان فاضلا كان مثلى
فاضلا عند قسمة الأرزاق[1]

والبديع — ولا شك — فن من فنون القول جميل ، لا ينكر ما فيه من براعة وكياسة وذوق ، ولا يجحد ما فيه من دقة ملاحظة وعمق فهم ، ولا تتجاهل قيمة بعض ألوانه فى التعبير ، وتجليتها ضروبا من جمال اللغة كانت خافية مجهولة ، ولا يرديه إلا التكلف وسوء الاستعمال ، ولا يسقطه إلا اللجاجة والقعود له كل مقعد .

وتضمن شعر الخصاصة صورا أدبية ، يمكن الحكم عليها بالابتكار ، أدى فيها الخيال الشعرى دوره تحت تأثير الانفعال العاطفى والرقى الفكرى ، كهذه .

الصورة البادية فى قول أبى الحسين الجزار :

إنى لمن معشر سفك الدماء لهم
دأب وسل عنهم إن رمت تصديقى

تضيىء بالدم إشراقا عراصهم
فكل أيامهم أيام تشريق[2]

وهذه الصورة الرائعة فى قول ابن نباتة :

ما بال ليلى لا يسير كأنما وقفت كواكبه من الإعياء
وكأنما كيوان فى آفاقه أعمى يسائل عن عصا الجوزاء[3]

ومثل هاتين الصورتين فى شعر العصر المملوكى قليل ، والقلة لا تعنى العدم .

---

(١) المختار من شعر ابن دانيال ص ٤٠
(٢) الخزانة ص ٢٤٨ (٣) الديوان ص ١٨

هذه وغيرها ظواهر فنية مشتركة بين شعر العصر بعامة وشعر الفاقة بخاصة بيد أن الظواهر الفنية فى شعر الخصاصة لم تقف عند حد هذه الظواهر المشتركة ، فقد لاحت فى الشعر موضوع الدراسة ظواهر أخرى قلما وجدت فى ساحة الجانب الآخر من شعر العصر يأتى فى صدارتها :

● ظاهرة تدفق العاطفة فى أوصال هذا الشعر ، وهيمنة الوجدان على تضاعيفة ، نتيجة وضوح الباعث عليه وقوة الدافع إليه ، فالممعن فى أشعار هؤلاء المحاويج المكدين يلفت نظره شعور حاد بالفقر ، وإحساس مرير بشدة وقعه على نفوسهم ، وشكوى صارخة من هوان منزلتهم الاجتماعية ، وسوء احتفال المجتمع بهم ، وقصور أيديهم عن الأخذ بنصيبهم من الحياة والحصول على شيء ما من مواردها الكثيرة الأفياء ، التى يحتكرها المماليك وحاشيتهم ، وتنبلج له لوعتهم الملتاعة تجاه مجتمعهم الذى ظلمهم ، وحرمهم من تلك العدالة الاجتماعية ، وجردهم من أسلحتهم التى يخوضون بها معترك الحياة ، ولعل فى إمطلع دالية ابن دانيال ما يدعم هذه الظاهرة :

أصبحت أفقر من يروح يغتدى
ما فى يدى من فاقة إلا يدى[1]

ووقول ابن نباتة :

قل عونى على الزمان فأصبحـــت صبورا على مراد الزمان
حابس اللفظ والـيراع عن النا س فلا من يدى ولا من لسانى[2]

● الواقعية فى شعر الخصاصة . . إذ أن هذا الشعر يعبر بصدق وموضوعية عن واقع الشعراء الأليم وحزنهم المقيم ، ويعطى فى الوقت نفسه صورة واضحة لما يجرى فى البيئة الاجتماعية من أهوال ومفارقات واختلال وفساد ، مما لا نلمح له أثرا فيما سواه من شعر العصر ، فشعر ،

---

(١) الديوان ص ١٥٤
(٢) الديوان ص ٥٣٦

الخصاصة بقدر ما يمثل واقع شعرائه يمثل الأبعاد الاجتماعية في المجتمع، ومن ثم تمتزج فيه المشاعر الذاتية بمشاعر الجماعة، وتبرز في تضاعيفه الواقعية، وتنأى عن أفقه النزعة التقليدية التي كثيرا ما دار شعر العصر في فلكها.

• وكان شعر الخصاصة لذلك بمنأى عن الأشكال الشعرية المستحدثة كالألغاز والأحاجي، والنظم الذي تتداخل بعض أجزائه في بعض، والمعروف بالتشجير، والطرد والعكس، والشعر الهندسي في دوائره المركبة والمبسطة، إلى غير هذه الأشكال.

• وهنا يجدر التنويه بما في شعر الخصاصة من القصة الطريفة الحوارية كهذه التي جرت على لسان البوصيري، والتي يقول فيها:

ويوم زارت أمهم أختهـــا	والأخت في الغيرة كالضره
وأقبلـــت تشكولها حالهـا	وصبرها مني على العشره
قالت لها: كيف تكون النسا	كذا مع الأزواج ياغمره
قومي اطلبي حقك منه بلا	تخلف منـــك ولا فتره
وإن تأبى فخـــذي ذقنه	أو انتفيها شعرة شعره
قالت لهـــا: ما هكذا عادتي	فإن زوجي عنده ضجره
أخاف إن كلمتـه كلمـــة	طلقني، قالت لهـا: بمره
وهونت قـــدري عندها	فجاءت الزوجة مجـــتره
فقـاتلتني فهـــددتني	فاستقبلت رأسي بآجـره
وحق من حالته هذه	أن ينظر المولى له أمره[1]

وبهذا نكون قد كشفنا عن الظواهر الفنية المشتركة والخاصة.

---

(١) الديوان ص ١٦٧ وما بعدها

كلمة فى الختام

والآن وقد آذن البحث بالانتهاء نقول : لعل أبرز ماطا لعنابه هذا البحث الصورة الواضحة للتباين الاجتماعى واختلال التوازن إبان الحكم المملوكى ، والصراع الدائر بين الشعراء وساسة الدولة المملوكية ، والأسباب التى أسلمت جمهرة الشعراء إلى مخالب الفقر والعوز ، وآثار ذلك على الشعر والشعراء ، وأبرز البحث جدوى الشعر فى العلاج والنقد والتأريخ ، وأفصح عن أغراض الخصاصة فى ضوء الملابسات والبواعث .

وألمح إلى الظواهر الفنية فى هذا الشعر ، المشتركة منها والخاصة على السواء .

والمأمول أن تكون هذه الدراسة قد نفضت الغبار عن هذا الفن الشعرى ، وكشفت النقاب عن معمياته ، وحققت البغية فى الوصول إلى الصورة الصحيحة لشعر الخصاصة فى العصر المملوكى .

والحمد لله رب العالمين

أهم المراجع

١ — الإدفوى : الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ، تحقيق : سعد محمد حسن ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ م .

٢ — ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور طبعة بولاق القاهرة ١٣١٢ هـ

٣ — د : بكرى شيخ أمين : مطالعات فى الشعر المملوكى والعثمانى ، طبعة بيروت (الثالثة) ١٩٨٠ م

٤ — البوصيرى : الديوان ، تحقيق : محمد سيد كيلانى ، طبعة الحلبى بمصر (الثانية) ١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م

٥ — ابن تغرى برد : النجوم الزاهرة فى أخبار ملوك مصر والقاهرة طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٦ م

٦ — د : جودت الركابى : الأدب العربى من الانحدار إلى الازدهار طبعة دار الفكر بدمشق (الثانية) ١٩٨٢ م .

٧ — ابن حجة الحموى : خزانة الأدب وغاية الأرب ، طبعة بولاق ١٢٧٣ هـ

٨ — ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، تحقيق : محمد سيد جاد الحق ، طبعة القاهرة (الثانية) ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٦ م

٩ — ابن دانيال : المختار من شعر ابن دانيال ، تحقيق : محمد نايف الدليمى ، طبعة الموصل ، ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م

١٠ — الزمخشرى : أعجب العجب فى شرح لامية العرب . مجموعة الرسائل الكمالية ، طبعه القاهرة (الثانية) ١٣٩٩ هـ

١١ — السيوطي (جلال الدين) : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم ، طبعة الحلبي بالقاهرة (الأولى) ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م

١٢ — الشاب الظريف : الديوان ، تحقيق : شاكر هادي شكر ، طبعة النجف ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م

١٣ — ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات : تحقيق : د. إحسان عباس طبعة بيروت

١٤ — أبو شامة المقدسي الدمشقي : تراجم القرنين : السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين

١٥ — صفي الدين الحلي : الديوان : تحقيق كرم البستاني ، دار صادر بيروت

١٦ — صلاح الدين الصفدي : الغيث المسجم في شرح لامية العجم ، طبعة بيروت (الأولى) ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م

١٧ — طاهر أبو فاشا : الذين أدركتهم حرفة الأدب ، طبعة دار الشروق (الأولى) ١٤٠١ هـ — ١٩٨١ م

١٨ — عبد العليم القباني : مع الشعراء أصحاب الحرف . سلسلة : مذاهب وشخصيات ، وزارة الثقافة المصرية ١٩٦٧ م

١٩ — د : محمد زغلول سلام : الأدب في العصر المملوكي ، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧١ م

٢٠ — د : محمد عبد المنعم خفاجي : الحياة الأدبية في مصر ، العصر المملوكي والعثماني ، طبعة القاهرة ١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤م

٢١ — د : محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى ، طبعة القاهرة (الأولى) ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م

٢٢ — ابن نباتة المصرى : الديوان ، جمع : البدر البشتكى ، نشر : محمد القلقيلى ، طبعة ، بيروت ... الأولى

٢٣ — ابن الوردى : الديوان ، تحقيق : د . أحمد فوزى الهيب ، طبعة الكويت (الأولى) ١٤٠٧ هـ — ١٩٨٦ م

محتوى البحث

الموضوع | الصحفة

رقم الإيداع بدار الكتب
٤٩١٩ / ١٩٩١ م
I. S. B: N · 977 - 00 - 1647 - 0